مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية

سلسة أعلام الصحابة المحاربين(4)

محمد بن مسلمة الأنصاري

المتوفى سنة 51هـ

تأليف

الأستاذ، أحمد عادل كمال

سلسة أعلام الصحابة المحاربين

محمد بن مسلمة الأنصاري

مقدمة المركز

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي العربي الكريم أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

لقد لمعت الشخصية الإسلامية -التي استطاع الرسول ﷺ تجهيزها وإخراجها بصورة منقطعة النظير- في الغزوات والفتوحات. حيث استطاعت هذه الشخصية بما اتسمت به من صفات وما تميزت به من قدرات أن تمخر عباب الظلمات محطمةً رؤوس الكفر وأذنابهم، فظهرت تلك الشخصية على مسرح الأحداث حاملة لواء الإسلام ذابة عن حياضه حامية بيضته مستعينة بالله في كرها وفرها حتى ثبت الله أقدامها وجعل النصر حليفها.

ولقد أطرى القرآن كفاح هذه الشخصية وبارك جهادها وسجل لها الكثير من المفاخر والمأثر ونسجت السنة على هذا المنوال نفسه فلم يدع المصطفى ﷺ فرصة لتكريمها ورفع شأنها إلا انتهزها ولا موطناً كان لها فيه أثر مذكور أو عمل مشكور إلا نوه بها فيه. وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلتها هذه الشخصية والدور العظيم التي اضطلعت به في السلم والحرب إلا أنها لم تنال من الباحثين والدارسين ما تستحقه من العناية وما يجب لها من التنويه بالمأثر والمفاخر لذلك عنّ للأستاذ/ أحمد عادل كمال أن يسد هذا الفراغ قدر استطاعته ومحاولاً إجلاء سيرتها وإماطة اللثام عن الجوانب العظيمة في حياتها.

لذلك فيسرنا أن نقدم للقارئ الكريم الجزء الرابع من سلسلة أعلام الصحابة المحاربين والذي يتناول الصحابي الجليل "محمد بن مسلمة الأنصاري" أخصائي شئون اليهودية في عهد الرسول ﷺ وصاحب الرقابة الإدارية في عهد عمر، الشديد في الحق الذي لا يجامل فيه ولا يجاور حتى لقى الله على ذلك.

ولعلنا لسنا بحاجة إلى التنويه بالجهد الذي بذله الأستاذ/ أحمد عادل كمال في تأليف هذا الكتاب وهو جهد استغرق وقتاً طويلاً من الكفاح الصامت قضاه المؤلف بين صفحات المصادر والمراجع. ولا يسعنا اليوم سوى أن نبارك هذا الإنتاج العلمي الثمين وإنا على يقين من المؤلف -بفضل ما توفر له من عزم وذكاء وخلق متين- سيقدم للمكتبة الإسلامية الكثير من الزاد الأصيل.

وأملنا أن يجد الكتاب ما يستحق من اهتمام القارئ وأن يجد فيه ما ينشد من المتعة والفائدة.

والله من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل

أحمد جابر بدران

مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية

مقدمة المؤلف

أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً فقال: "قاتل به المشركين ما قاتلوا. فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضا فائت به أحداً فاضرب به حتى ينكسر، ثم أجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية". ففعل "سنده ثقات".

هذه الرواية عن محمد بن مسلمة جمعت حياته ومماته. وليس بين هاتين الدفتين سوى تفصيل ما في هذه الرواية. لقد كان الرجل مجاهداً مادام الجهاد بين المسلمين وبين أعداء الإسلام من الوثنيين واليهود. وكان له مع هؤلاء ومع هؤلاء مواقف مشهودة. فلما تحول قتال المسلمين إلى حرب أهلية اعتزل ابن مسلمة الفتنة وكسر سيفه. ووقى يده ولسانه وقلبه وساوس الشيطان ومزالق الفتنة.

قدمنا في حلقة سابقة النعمان بن مقرن المزني قائد جيوش صنعه الإسلام. ولولا الإسلام ما كان شيئاً ولا ذكره أحد. وقدمنا في حلقة. أخرى طليحة بن خوليد الأسدى مقاتلا فذا ومبارزا لا يغلب وجسورا لا يخاف ولا يهاب. وإنساناً. يتقلب بين الغواية والهداية حتى يثبت على الهدى ويستشهد في سبيل الله. ولم يكن محمد بن مسلمة قائد جيش ولا كان من غزاة الفتوح. ولكنه كان مقاتلا شهد غزوات الرسول ﷺ وبعض السرايا والمهام الخاصة. كما كان له وقفات مشرفة بيضاء وسط دخان الفتنة. لقد أردنا بمحمد بن مسلمة أن نقدم نموذجاً جديداً قبل أن نعود إلى نوعية قادة الجيوش والوحدات التي تغلب على هذه السلسلة. كان ابن مسلمة مثالاً للمسلم الصلب في الحق صلابة لا تلين مهما تقلبت الأمور. فما كان ليتغير أو تختلف نظرته إلى الأمور. أقبلت الدنيا أو أدبرت.

أحمد عادل كمال

الرسالة والأنصار

أول إسلام في يثرب:

رفضت قريش رسالة الإسلام. فلم يقبل عليها ويؤمن بها إلا أقل من القليل. وقد قوبل هذا القليل باضطهاد وتعذيب شديدين حتى كان منهم شهداء. وذهب رسول الله ﷺ يعرض الإسلام على القبائل المجاورة وعلى من يفد إلى مكة في مواسم الحج، يخبرهم أنه نبي مرسل(1) ويدعوهم إلى أن يصدقوه ويؤمنوا بما جاء به ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه به الله. أتى قبيلة كنده في مضاربهم فأبوا عليه. وأتى كلباً في منازلهم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم. وأتى بني حنيفة فلم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم. وجاء إلى بني عامر بن صعصعة فصدوا عنه. وأتى غيرهم فلم يكن نصيبه منهم بأحسن من نصيبه من هؤلاء وقدم مكة حاجاً أو معتمراً سويد ابن صامت(2) أحد بني عمرو بن عوف من بني النجار من قبيلة الخزرج وكان يسمى في قومه الكامل(3). فدعاه رسول الله ﷺ إلى الله وإلى الإسلام وعرضه عليه فأجاب "أن هذا القول حسن" ثم انصرف من مكة وقدم إلى يثرب فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فكان قومه يقولون إنه قتل وهو مسلم وكان ذلك قبل يوم بعاث بين الأوس والخزرج. ولعل هذا أن يكون أول دخول الإسلام إلى يثرب، فهو أول ما وقفنا عليه من أخبار في هذا الشأن.

---

(1) الطبري347/2.

(2) الطبري 351/2عن بن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الظفري عن أشياخ من قومه.

(3) كانوا في الجاهلية إذا استوفى الرجل أن يكون شاعراً كاتباً راسياً أسموه الكامل.

الأوس والخزرج

وكانت بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وهم قبائل من اليهود يسكنون يثرب من أرض الحجاز. فلما كان سيل العرم ودمر سد مأرب خرجت قبائل اليمن من بني قطحان تبحث عن عيشها وحياتها في جهات أخرى. وسارت بطون من الأزد من اليمن إلى تهامة (وهو السهل الساحلي الحار المحصور بين البحر الأحمر وجبال الحجاز) ثم عادوا فساروا شمالاً حتى نزلت الأوس والخزرج بضواحي يثرب يجاورون من ذكرنا من اليهود. لم يكونوا أصحاب خيل وأنعام وشاء وأموال، وإنما كان ذلك قد اختص به اليهود من دونهم، فعاش بنو الأوس والخزرج بضواحي يثرب على حد الكفاف في ذل وهوان من اليهود الذين حكموهم وتحكموا فيهم وتسلطوا عليهم وأساءوا إليهم.

وانطلق وافد منهم هو مالك بن عجلان الخزرجي إلى بني غسان بالشام وكانوا أيضاً من قبائل اليمن المهاجرة فاستجارهم على اليهود فاستجابوا له وأجاروهم وزحفوا إلى يثرب فأوقعوا باليهود وقتلوا كبراءهم ومكنوا للأوس والخزرج بها ثم عادوا إلى الشام. وعاشت الأوس والخزرج في وئام حتى وقعت بينهم حرب تعرف بحرب سميراء انتصرت فيه الأوس على الخزرج وقد انضمت بنو قريظة وبنو النضير إلى الأوس وحالفوهم على الخزرج، ولبثت الأوس والخزرج متحاربين عشرين سنة قبل أن يهدأ ما بينهما بالتحكيم

ولكن ما لبث أن وقعت بينهما بعد ذلك حرب كعب بن عمرو وكانت الغلبة فيها للخزرج على الأوس، وعادت الحرب بين الحيين فيما عرف بحرب حاطب وكان لليهود من بني قينقاع يد في أحداث الوقيعة بينهما. وكانت الغلبة فيها للخزرج على الأوس. وأخيراً كان يوم بعاث وقد بعث رسول الله ﷺ في مكة وهو آخر ما وقع بين الأوس والخزرج. كذلك كانت بينهما مواقع منها يوم السرارة ويوم الربيع ويوم فارع ويوم البقيع ويوم معبس ومضرس وغيرها. ولن نتناول هنا إلا يوم بعاث فهو الذي يهمنا إذ كان بعد البعثة وقبل الهجرة.

يوم بعاث(4)

كانت الأوس تحالف بني قريظة وبني النضير وتستعين بهم في وقعاتها مع الخزرج فبعثت الخزرج إلى هؤلاء اليهود يقولون لهم: "لن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب. فإن ظفرنا بكم فذاك ما تكرهون. وإن ظفرتم لم ننم عن الطلب أبدا فتصيروا إلى ما تكرهون ويشغلكم من شأننا ما أنتم الآن منه خالون. وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا" .

(4) أيام العرب في الجاهلية 73.

فانفض اليهود عن نصرة الأوس وأجابوا الخزرج بذلك. ولكن الخزرج طلبت منهم أربعين غلاماً منهم بصفة رهينة ضماناً لعدم تدخلهم، فبعث اليهود إليهم بهم ففرقتهم الخزرج في دورهم.

واتجه وفد من الأوس إلى مكة يرأسه أبو الحيسر أنس بن رافع(5) ومعه فتية من بني عبد الأشهل جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على الخزرج. وسمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم وقال لهم "هل لكم إلى خير مما جئتم له؟ قالوا: وما ذاك؟ قال أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى الله أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً. وأنزل عليَّ الكتاب، وشرح لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن" .

فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثاً منهم: "أي قوم. هذا والله خير مما جئتم له". فأخذ أنس بن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: "دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا". فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ، وانصرف الوفد إلى المدينة .

ولكن استجابة اليهود بتسليم أولادهم رهنا أطمعت فيهم الخزرج، فبعثوا إلى بني قريظة والنضير ينذرونهم بإخلاء مساكنهم للخزرج وإلا قتلوا الرهائن. ورفض اليهود الإنذار فقتلت الخزرج الغلمان إلا ما كان من عبد الله بن أبي الذي خالف قومه في ذلك مع من أطاعه منهم وأطلق سراح رهائنه.

---

(5) الطبري 353/2 عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق عن الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل عن محمود بن لبيد أخي بني الأشهل.

وقتلت الخزرج سائر الرهائن فوقعت مناوشات بينهم وبين الأوس في ذات اليوم، واجتمعت قريظة والنضير إلى كعب بن أسد القرظى واتفقوا على أن يعينوا الأوس على الخزرج، واستضاف كل بيت من قريظة أهل بيت من الأوس فنزلوا معهم في دورهم التي كانت كالحصون.

ورأس عمرو بن النعمان الخزرج إلا عبد الله بن أبي ومن أطاعه كذلك تخلف عن الأوس بنو حارثة فبعثوا إلى الخزرج" إنا والله ما نريد قتالكم". وأجابتهم الخزرج "أن ابعثوا إلينا برهائن منكم يكونون في أيدينا" فبعثوا إليهم أثنى عشر رجلا ومكثت الأوس والخزرج أشهرا يتجهزون للحرب ويجمعون لها، وجاءت إلى الأوس أمداد من أوس الله ومن مزينة، كما جاءت إلى الخزرج أمداد من جهينة وأشجع ثم التقوا بمكان يسمى بعاث.

واقتتلوا فانهزمت الأوس وولت الأدبار نحو حرة قورى من حرار المدينة، وصاحت بهم الخزرج تعيرهم "أين الفرار" واستحت الأوس من فرارها، فعادت تكر على الخزرج وأصاب سهم عمرو بن نعمان زعيم الخزرج فقتله وانهزمت الخزرج وقام يهود بني قريظة والنضير يسلبونهم، وصارت الأوس تحرق نخيلهم ودورهم حتى خرج سعد بن معاذ بن بني عبد الأشهل من الأوس فوقف على باب بني سلمه من الخزرج وأجارهم وأموالهم جزاء لهم بيوم الرعل إذ جرح سعد بن معاذ فاحتمله بنو سلمة وأجاره وأخاه عمرو بن الجموح الخزرجي وأجار الرعل من الحريق وقطع الأشجار. فلما كان يوم بعاث حازاه سعد.

وأقسم كعب بن أسد اليهودي القرظي أن يذل عبد الله بن أبي باعتباره من سادة الخزرج، وأن يجز ناصيته ويحلق شعره تحت حصن مزاحم. وناداه كعب "أنزل يا عدو الله". فقال عبد الله "أنشدك الله ما خذلت عنكم" فسأل كعب فوجده حقاً فرجع عنه.

بعد ذلك لم يلبث إياس بن معاذ الأوسي- الذي مر ذكره في وفد الأوس إلى قريش - أن مات ولم يزل قومه عند موته يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فلما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً منذ دخل الإيمان قلبه في مجلس الرسول(6) فكان هذا ثاني من أسلم من أهل يثرب وقد توفى كما قتل سويد بن صامت الخزرجي من قبل. فعادت يثرب ليس بها مسلم.

ستة من الخزرج

وعاود النبي ﷺ الخروج إلى وفود الحجيج يعرض الإسلام على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فلقى رهطا من الخزرج عند العقبة. كانوا ستة هم(7):

*(أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة) من بني مالك بن النجار.

*(رافع بن مالك، وقطبة بن عامر) من بني جشم.

---

(6) ابن هشام 266/2و 267.

(7) الطبري 353/2 عن ابن حميد عن سـلمة عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتاده عن أشياخ من قومه. زاد المعاد 50/2.

*(عقبة بن عامر من بني حرام بن كعب).

*(جابر بن عبد الله من بني عدي بن غنيم).

فقال لهم: "من أنتم؟ ".

فقالوا: "نفر من الخزرج".

قال: "أمن موالي يهود؟" .

قالوا: "نعم".

قال: "أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟".

قالوا: "بلى" .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام. وأسمعهم كلام الله. لقد كانوا يعايشون اليهود في يثرب. وكان اليهود أهل كتاب. وكانوا هم أهل شرك ووثنية، فإذا كان بينهم شئ قال لهم اليهود: "إن نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم".

فلما سمعوا من رسول الله ﷺ كلامه قال بعضهم لبعض: "تعلمن والله أنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه". فأجابوا النبي إلى ما دعاهم إليه وصدقوه وقالوا له: "إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم. وعسى الله أن يجمعهم بك. وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك. ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك". ثم انصرفوا إلى يثرب وقد آمنوا وصدقوا.

أنصار ومهاجرون

وقام هؤلاء الستة من بني الخزرج بالدعوة إلى الإسلام في المدينة حتى فشا فيها فلم تبق دار من الأنصار إلا وقد صار فيها ذكر من رسول الله ﷺ فلما دار العام وجاء موسم الحج، لقى رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلا من الأنصار بالعقبة فبايعوه بيعة العقبة الأولى. وكان بينهم اثنان من الأوس، ثم انصرفوا وقد بعث النبي ﷺ معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، ولم يرجع مصعب إلى مكة إلا وقد كان للإسلام ذيوع في المدينة. وفي موسم الحج التالي خرج مشركو المدينة إلى مكة كالعادة، وكان المسلمون معهم قد كتموا إسلامهم عمن معهم، واجتمعوا بالنبي ﷺ بالعقبة سراً.

كانوا سبعين رجلاً وامرأتين فبايعوه على الإسلام والمنعة. وأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا. تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . كان ذلك في شهر ذي الحجة من العام السابق على عام الهجرة ثم خرج رسول الله ﷺ مهاجراً بعدها إلى المدينة في شهر صفر فبلغها في شهر ربيع الأول التالي. وتتابع المهاجرون على المدينة جماعات قبل الرسول وبعده.

فضل الأنصار

هكذا تكونت الأنصار ونشأت. فكانوا أنصار اسما وصفة. آووا رسول الله ﷺ وعزروه ونصروه حين انصرف عنه قومه وأقرب الناس إليه. ووسعوا المهاجرين الذين لا دار لهم ولا مال في دورهم وبأموالهم. هكذا نجد الرسالات تبدأ في أرض لا تجد فيها رواجاً فتهاجر منها حيث تزدهر في غيرها ثم تعود إلى أرضها الأولى. كذلك كانت رسالات إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى ومحمد ﷺ.

عن أبي هريرة ﷺ(8) قال: قالت الأنصار(للنبي) أقسم بيننا وبينهم (المهاجرين) النخل. قال ﷺ: "لا تكفونا المؤونة وتشركونا في الثمر". قالوا سمعنا وأطعنا.

وقالت الأنصار يوم(9) غزوة الخندق:

---

(8) البخاري 15/36-3537 عن الصلت بن محمد أبو همام عن المغيرة بن عبد الرحمن عن أبي زناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

(9) البخاري 15/42 عن آدم عن شعبة عن حميد الطويل عن أنس بن مالك.

على الجهاد ما حيينا أبدا	نحن الذين بايعوا محمدا

فأجابهم رسول الله ﷺ: "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة"

قال(10) غيلان بن جرير: "قلت لأنس أرأيتم اسم الأنصار كنتم تسمون به أم سماكم الله؟ قال بل سمانا الله. كنا ندخل على أنس فيحدثنا مناقب الأنصار ومشاهدهم ويقبل علي أو على رجل من الأزد فيقول فعل قومك يوم كذا وكذا. كذا وكذا".

وكما قدم الأنصار من أموالهم وسعة صدورهم، فقد قدموا أيضاً من أرواحهم ودمائهم حتى لقد كانوا ثلاثة أرباع المسلمين في غزوة بدر الكبرى، التي مازال المسلمون يباهون بها. قال قتادة(11): "ما نعلم حيا من أحياء العرب أكثر شهيداً أعز يوم القيامة من الأنصار" وقال أنس بن مالك أنه قتل منهم يوم أحد سبعون ويوم بئر معونة سبعون ويوم اليمامة سبعون.

كذلك استشهد منهم يوم الجسر من معارك فتوح العراق عدد كبير أحصينا منهم خمسا وثلاثين(12) بأسمائهم.

(10) البخاري 15/33-3531.

(11) البخاري 12/16.

(12) الطريق إلى المدائن.

أولئك الأنصار خطبهم النبي ﷺ يوم فتح مكة فقال لهم: "أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت أمرأً من الأنصار ولو سلك الناس وادياً وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها. الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض(13). ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار". يقول أبو هريرة(14) "ما ظلم بأبي وأمي آووه ونصروه" .

وكذلك قال ﷺ(15): "الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله" كما قال(16): "آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار". وقال للأنصار(17): "أنتم أحب الناس إليَّ" .

وفي الصحيحين(18) عن أنس أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله. قال: "لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم" .

([13]) البخاري 16/159-4034.

([14])البخاري 16/159-3534.

([15]) البخاري 15/37-3537 عن حجاج بن منهال عن شعبة عن عدي بن ثابت عن البراء.

([16]) البخاري 15/37-3539 عن مسلم بن إبراهيم عن شعبة عن عبد الرحمن بن عبد الله بن جبر عن أنس بن مالك.

([17]) البخاري 15/37.

([18]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 8/450.

صاحبنا محمد
المولد والنسب

كان محمد بن مسلمة في الثلاثين أو الثالثة(19) والثلاثين من عمره عام الهجرة. وإذا فقد كان رجلا يوم بعاث. فأين كان مكانه منها؟ لا تسعفنا الروايات بشيئ عن محمد ولكن من حيث أنه ينتسب إلى بني حارثة فقد مر بنا أنهم تخلفوا عن سائر الأوس وأنهم ذكروا للخزرج أنهم لا يريدون حربهم وبعثوا إليهم اثنى عشر رجلا رهنا ضمانا لذلك. ونفهم من ذلك أن محمد بن مسلمة كان محايداً أو معتزلا لتلك الحرب بين قبيلته الأوس وبين الخزرج، وأنه لم يكن وحده في ذلك، وإنما كان من بنى حارثة.

ومحمد بن مسلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس كان حليف بني عبد الأشهل. كثير من قراء جيلنا يضيق بذلك الأنساب ولهم في ذلك عذرهم. فإنها شئ يطول دون أن يكون له عندهم معنى. ونبادر إلى تصحيح ذلك الوهم فإن النسب عند العرب هو الذى يبين مكان الرجل من مجتمعه.

---

(19) ذكر الواقدي أنه ولد قبل البعثة باثنتين وعشـرين سـنة (الإصابة 7708) وكانت البعثة قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة.

ونسب محمد بن مسلمة يفيدنا أنه كان من قبيلة الأوس ثم من بني حارثة، فقد تشعبت الأوس- كما تشعبت كل قبيلة – إلى البطون. ومعرفة تلك البطون مما يعين كثيرا على تفهم السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي عامة. ونود هنا أن نشير إلى أن العرب كانوا ينسبون إلى قبائلهم، وحيث انعدمت هذه القبائل عند سواهم فقد كانوا ينسبونهم إلى مدنهم، فيقولون عن غير العرب فلان الطبري نسبة إلى طبرستان وفلان البخاري نسبة بخارى وفلان الرازي نسبة إلى الري وهكذا فنجد العسقلاني والقزويني والاصطخري والدينَوَري والقرطبي والكِرْماني... إلخ ولو كان هذا التقليد فشا في أيامنا هذه لكنا قلنا مثلا عباس العقاد الأسواني المصري أو مصطفى صادق الرافعي الطنطاوي المصري فلعرف كل إنسان أن العقاد من أسوان مصر وأن الرافعي من طنطا مصر وهكذا. هذا التقليد الذي فقدناه في عصرنا كان معمولا به عند العرب وكانت له فوائده ودلالاته ويا حبذا لو حرصنا على تفهم تلك الدلالات لوضع الرجال في مواضعهم من بيئتهم ومجتمعهم. ومن بين الأوس يكثر ذكر بني جحجبي وبني معاوية وبني ظفر وبني ساعدة وبني حارثة وبني جشم وبني عبد الأشهل. وتيسيراً على القارئ فقد جمعناها في شكل(1) لتبيان صلات القرابة والانتساب فيما بينهم. كما أظهرنا منازلهم ومساكنهم على خريطة المدينة.

الاسم الكريم

أورد ابن الأثير سبعاً وسبعين ترجمة لمن اسمهم محمد من المسلمين في عصر النبوة(20)، غير أن منهم من تنتفي عنه الصحبة، ومنهم من أبناء الصحابة الذين سماهم آباؤهم. "محمدا" تيمناً باسم رسول الله ﷺ، وقليل من تسمي محمداً قبل الإسلام. لقد كان الاسم معروفا غير أنه لم يكن شائعاً، ولقد كان ابن مسلمة من ذلك القليل الذي حمل هذا الاسم الكريم في الجاهلية.

إسلام ابن مسلمة

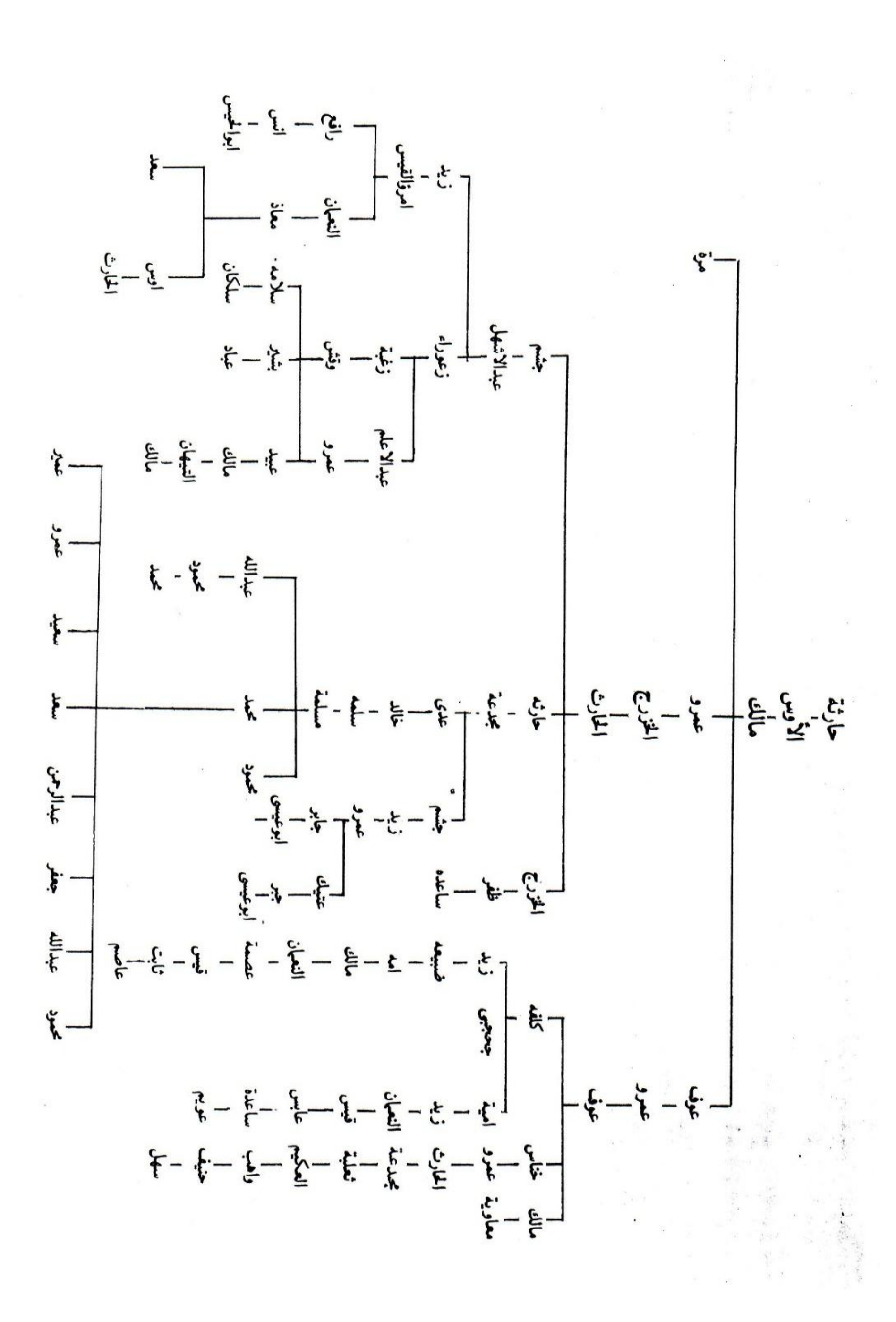
وكان محمد بن مسلمة من السابقين إلى الإسلام بالمدينة، أسلم قبل الهجرة على يدي مصعب بن عمير حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى الأنصار بعد بيعة العقبة الثانية ليدعو إلى الله بين الأوس والخزرج وليفقههم في الدين. وكان إسلام محمد قبل إسلام سعد بن معاذ سيد الأوس، ولم يلبث بعد ذلك أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كما هاجر المهاجرون ممن أسلم من قريش، في هذه الهجرة سلبت قريش كثيراً من المسلمين أموالهم وصادرتها واضطر كثير من المهاجرين إلى ترك مالهم بمكة فرارًا بدينهم، فبلغوا المدينة ولا يملكون شروي نقير.

([20]) أســد الغابة في معرفة الصحابة. وذكر ابن حجر العسقلاني في " الإصابة" ثلاثة وستين من الصحابة اسمهم"محمد" .

وعلاجاً لذلك فقد آخى(21) رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فجعل لكل أنصاري أخا من المهاجرين، وشارك بعضهم أخاه رزقه وبيته حتى يغنيه الله من فضله وضرب الأنصار أروع المثل في فضيلة الإيثار. كانوا تسعين رجلا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، واستمروا على ذلك إلى حين وقعة بدر.

في هذه العملية الاجتماعية الرائعة من الحب في الله والتآخي عليه أخى رسول الله ﷺ بين محمد بن مسلمة وبين أبي عبيدة عامر بن الجراح الذي قال فيه رسول الله ﷺ "لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح" وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله بالجنة، وكان من كبار الصحابة وفضلائهم وأهل السابقة منهم، وقد قال أبو بكر الصديق ﷺ يوم السقيفة فيمن يرشح خليفة لرسول الله ﷺ " قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين" يعني عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح، ثم بعثه أبو بكر لفتح الشام ففتحه الله على يديه في عهد عمر، وقد قال له عمر إذ دخل عليه الشام وهو أميرها "كلنا غيرته الدنيا غيرك يا أبا عبيدة" أبو عبيدة هذا هو الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين محمد بن مسلمة، وكان أبو عبيدة يومذاك في الأربعين من عمره ويتقدم ابن مسلمة بنحو سبع سنوات أو عشر سنوات (على خلاف).

([21]) زاد المعاد 65/2.



حارثة
الأوس
مالك
عوف
عمرو
مرة
عمرو
عوف
الخزرج
الحارث
مالك
معاوية
خناس
عمرو
الحارث
مجدعة
ثعلبة
العكيم
واهب
حنيف
سهل
كلفه
امية
زيد
النعمان
قيس
عابس
ساعدة
عويم
جحجبى
زيد
ضبيعه
امه
مالك
النعمان
عصمة
قيس
ثابت
عاصم
الخزرج
ظفر
ساعده
حارثه
مجدعة
جشم
زيد
عمرو
عتيك
جبر
ابوعيسى
جابر
ابوعيسى
عدى
خالد
سلمه
مسلمة
محمود
محمد
عبدالله
محمود
محمد
محمود
عبدالله
جعفر
عبدالرحمن
سعد
سعيد
عمرو
عمير
جشم
عبدالاشهل
زعوراء
عبدالاعلم
عمرو
عبيد
مالك
التيهان
مالك
زغبة
وقش
بشير
عباد
سلامه
سلكان
زيد
امرؤالقيس
النعمان
معاذ
اوس
الحارث
سعد
رافع
انس
ابوالحيس

أول العهد بالمدينة

بلغ رسول الله ﷺ المدينة فنزل عند أبي أيوب الأنصاري في بني النجار(22) من الخزرج وبنى مسجده في موضعه الذي هو فيه حتى اليوم، وكان في مكانه نخل وحرث وقبور من قبور الجاهلية فأزالوا ذلك كله، وتولى النبي بناء المسجد بنفسه وبأصحابه من المهاجرين والأنصار.

السرايا والغزوات الأولى:

وبعث رسول الله ﷺ في رمضان من العام الأول للهجرة(23) - بعد سبعة أشهر من هجرته- حمزة بن عبد المطلب في سرية من ثلاثين من المهاجرين ثم بعث في شوال عبيدة بن الحارث في ستين من لمهاجرين سرية إلى بطن رابغ.

ثم بعث في ذي القعدة سعد بن أبي وقاص في سرية من عشرين من المهاجرين إلى الخرار. ثم خرج رسول الله ﷺ غازيا في صفر من العام الثاني بعد هجرته بعام إلى ودّان وهي غزوة الأبواء. وكان لواؤه مع حمزة بن عبد المطلب واستخلف على المدينة سيد الخزرج سعد بن عبادة بن دليم.

ثم بعث عبيدة بن الحارث مرة أخرى في ثمانين أو ستين من المهاجرين إلى أحياء في صفر أو في ربيع الأول من العام الثاني.

([22]) الطبري 397/2 عن مجاهد بن موسى عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن أبي التياح عن أنس بن مالك.

([23]) الطبري 402/2 عن الواقدي.

ثم بعث حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكبا من المهاجرين إلى ساحل البحر ناحية العيص. وغزا رسول الله ﷺ في ربيع الآخر يريد قريشا حتى بلغ بواط بناحية جبل رضوى قريبا من المدينة وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، واستخلف على المدينة سيد الأوس سعد بن معاذ.

بعد ذلك خرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى أو الآخرة من العام الثاني يعترض عير قريش إلى الشام في مائة وخمسين رجلا من المهاجرين وكان يحمل لواءه حمزة ابن عبد المطلب واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، ولكن العير التي خرج يطلبها فاتته. وفي رجب من العام الثاني بعث سرية عبد الله بن جحش في ثمانية أو اثنى عشر من المهاجرين ثم كانت غزوة بدر في رمضان.

مهاجرون فقط

جميع تلك السرايا والغزوات(24) كانت من المهاجرين ولم يكن فيها أحد من الأنصار وذلك فيما كان قبل غزوة بدر الكبرى ولقد كان كل من حمل لواءه ﷺ في تلك الغزوات من المهاجرين في حين كان أكثر من استخلف على المدينة من الأنصار.

لماذا اختص المهاجرون دون الأنصار بتلك السرايا والغزوات؟!

(24) إمتاع الأسماع 62.

ربما كشف لنا الحوار الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين الأنصار في غزوة بدر الكبرى عن سر ذلك، فقد كان العهد الذي أخذه على الأنصار في بيعة العقبة الثانية أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأموالهم، فهو عهد دفاعي ليس فيه نص على أي عمليات هجومية. ولقد كانت تلك السرايا والغزوات هجوماً من المسلمين على عير قريش وخطوط تجارتها مع الشام. كان المهاجرون - دون الأنصار- هم الذين أضيروا في أموالهم التي لدى قريش بمكة فهم حين يحاولون استخلاص شئ من أيدي قريش فهو من مقابل أموالهم المصادرة وإذا هاجموها فإنما يهاجمها الذين أخرجتهم من ديارهم وأموالهم، أما وضع الأنصار فقد كان يختلف.

غزوة بدر الكبرى

ومع ذلك فقد كان الأنصار للمهاجرين أكثر من حلفاء، كانوا إخوانهم في الله وما أكبرها كلمة ومعنى. وما كان يسعهم أن يدعوا إخوانهم من المهاجرين يخوضونها وحدهم. ولذلك بدأ الأمر يختلف ويتغير ابتداء من غزوة بدر الكبرى.

وقد آن أوان رجوع قافلة قريش التي فاتت المسلمين في طريقها إلى الشام فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه لاعتراضها.

يقول الرواة: "ندب أصحابه للخروج إلى العير وأمر من كان ظهره حاضرًا بالنهوض، ولم يحتفل لها احتفالاً كبيراً. كان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر مع اختلافات طفيفة في الروايات وكان بيانهم كما أورده الرواة كالآتي:

رواية ابن عباس	رواية الواقدي	رواية ابن اسحق
77مهاجرون	74مهاجرون	84 مهاجرون 61 الأوس
236 أنصار	231 أنصار	170 الخزرج
313	305	314

وكانت إبل المسلمين سبعين بعيرا وخيلهم فرسين. هذه الأرقام تفيد أن الأغلبية العددية الساحقة كانت للأنصار فهم أكثر من ثلاثة أرباع المسلمين في ذلك اليوم العظيم الذي خلد في تاريخ المسلمين. هؤلاء المائتان وشئ كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه واحدا منهم. وكان سعد بن عبادة يحمل راية الأنصار، وعلى بن أبي طالب يحمل راية المهاجرين.

وكما فاتت العير المسلمين في ذهابها إلى الشام، كذلك فاتتهم في عودتها وكانت قريش قد خرجت من مكة لإنقاذ قافلتها، فوجد المسلمون أنفسهم أمام تسعمائة وخمسين(25) منهم يواجهونهم. لقد قال الأنصار لرسول الله ﷺ يوم بيعتهم الثانية بالعقبة "يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا". فكان الرسول ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج مدينتهم. حتى قال له سعد بن معاذ يوم بدر: "قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينيك، فسر بنا على بركة الله" .

فسر رسول الله بقول سعد وقال: "سيروا على بركة الله و أبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني انظر إلى مصارع القوم".

---

(25) الطبري 423/2.

ودارت المعركة، وقد قام سعد بن معاذ في نفر من الأنصار على عرين رسول الله ﷺ يحرسونه، وأظهر الله المسلمين على المشركين، فقتلوا سبعين من صناديدهم وأسروا سبعين وقيل أربعة وأربعين، وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، وزيد بن الحارثة إلى أهل(26) السافلة ليبشراهم بالنصر.

بنو قينقاع

حين قدم رسول الله ﷺ المدينة عقد معاهدة مع يهودها ألا يعينوا(27) عليه أحداً وإن دهمه بها عدو نصروه، فلما أوقع بالمشركين يوم بدر تحركت أضغانهم وبدت البغضاء من أفواههم .فجمعهم رسول الله ﷺ بسوق بني قينقاع ثم قال لهم: "يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله إليكم".
قالوا: "يا محمد إنك ترى أنا كقومك؟ لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن إنا نحن الناس" فكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين الرسول، وانفض الاجتماع

([26])الطبري 458/2 عن بن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

([27]) الطبري 479/2 عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

وقد اشتد التحدي بين الطرفين. وجاءت امرأة مسلمة بحلي لها لتبيعها في صاغة بني قينقاع، وجلست عند صائغ منهم فالتف حولها جماعة من اليهود يشاكسونها، وطلبوا منها كشف وجهها فأبت، فشبك أحدهم طرف ثوبها من خلفها إلى ظهرها، فلما قامت فجأة انكشف وضج اليهود بالسخرية منها فضرب أحد المسلمين الصائغ اليهودي فقتله وقتل اليهود المسلم. فسار إليهم النبي ﷺ يوم السبت النصف الأول من شوال من العام الثاني للهجرة. لم يكن بنو قينقاع أصحاب حصون ولا معاقل شأن بني النضير وبني قريظة وإنما كانوا تجاراً وصاغة، وكانت منازلهم بوسط المدينة وفي سوقها. وكان بنو قينقاع سبعمائة مقاتل منهم ثلاثمائة متدرعون بدروع الحديد.

فحاصرهم النبي ﷺ في ديارهم خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد، ثم نزلوا على حكمة فأوثقوا بالحبال.

لم نقف على عدد المسلمين في غزوة بني قينقاع، ولكن عددهم يوم بدر لا يعد دليلا على عدد جيشهم لأنهم لم يحشدوا له كل قوتهم ولم يخرجوا من المدينة بقصد الحرب، غير أنهم كانوا سبعمائة يوم أحد بعد ذلك بعام وقد حشدوا لها كل طاقتهم. نخلص من هذا إلى أنهم لم يتجاوزا السبعمائة في غزو بني قينقاع،

ومع ذلك فقد استنزلوا سبعمائة من اليهود وأوثقوهم وكادوا يقتلونهم جميعاً لولا شفاعة عبد الله بن سلول كان عبد الله مطاعاً في كثير من بني الخزرج حتى أنه حين انفض عن رسول الله ﷺ يوم أحد أطاعه ثلاثمائة انصرفوا معه، وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج قبل إسلام الأوس والخزرج. فمنح رسول الله بني قينقاع لعبد الله على أن يجلوا عن المدينة ولا يقيموا فيها وعلى أن يغنم ما كان لهم من مال وسلاح وآلات الصياغة، وكان الذي تولى جمع غنائم بني قينقاع محمد بن(28) مسلمة .وقد تولى إخراجهم من المدينة رجل اختلفت الروايات بشأنه، رواية تذهب إلى أنه عبادة بن الصامت، ورواية تذهب إلى أنه محمد بن مسلمة. والذي نميل إليه أنه كان محمد بن مسلمة، لا تعصباً للرجل الذي نترجم له ولكن لأننا نظرنا فوجدنا أن عبادة بن الصامت كان(29) من الخزرج وأن الذي شفع فيهم كان من الخزرج وقد كانوا حلفاء بني قينقاع، ولم يكن محمد بن مسلمة كذلك إذ كان من الأوس، وقياسا على أن رسول الله ﷺ قد وكل أمر تربيطهم وتكتيفهم إلى المنذر بن قدامة السلمي وهو من الأوس أيضاً فنظن أن حسن السياسة كان يقتضي اختيار رجل من قوم لم يجمعه ببني قينقاع حلف سابق أو مجاملة. وقد جلا بنو قينقاع بنسائهم وذراريهم حتى نزلوا أذرعات بأطراف الشام.

([28])زاد المعاد 71/2.

([29]) تذهب الرواية القائلة بأن عبادة بن الصـــامت هو الذي أجلاهم إلا أنه خلع حلف بني قينقاع وتبرأ منه فنزل قوله"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء" . الآية(الإصابة 4497) وأنه خرج حتى أبلغهم جبل ذباب شمالي المدينة(الطبري 481/2).

غزوة ذي أمر

خرج رسول الله ﷺ في أصحابه إلى نجد يريد قبيلة غطفان(30) وهو الخروج المعروف بغزوة ذى أمر فأقام بنجد شهر صفر كله ثم رجع إلى المدينة دون أن يحدث أي اشتباك فأقام بها شهر ربيع الأول وعاد إلى الخروج يريد قريشاً وبني سليم حتى بلغ نجران بالحجاز فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى دون أن يلقى أحداً فرجع إلى المدينة ومن حيث يذكر الرواة أن محمد بن مسلمة قد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ (ما عدا تبوك)، فإننا نخلص إلى أنه كان مع الرسول في هاتين الغزوتين.

([30]) الطبري 487/2 عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق.

اغتيال كعب بن الأشرف
حقد وتشبيب

وقع هذا الحادث- اغتيال كعب بن الأشرف- في الرابع عشر من شهر ربيع الأول من العام الثالث من الهجرة، وكان وقوعه وليد الحقد الذي استشرى بين يهود المدينة للمسلمين، والذي اندلع بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر.

كعب بن الأشرف كان أحد بني نبهان من قبيلة طيئ، ولكن أمه كانت يهودية من بني النضير، ومن المعلوم أن الدين اليهودي والجنسية الإسرائيلية تنتقل- عند بني إسرائيل- إلى الأبناء عن طريق الأم كما تنتقل عن طريق الأب. فكان كعب من بني النضير الذين سكنوا أطراف المدينة.

فلما وقعت غزوة بدر وكانت أول التحام هام مسلح بين المسلمين والمشركين وأحرز المسلمون فيها نصرا مؤزرا وأصابوا من سادات قريش ورؤوسهم، بعث رسول الله ﷺزيد بن حارثة إلى أهل السافلة (وهي ما كان من جهة تهامة من المدينة) وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية (وهي ما كان من جهة نجد من قرى المدينة وعمائرها) بعثهما بشيرين بنصر المسلمين في بدر وبقتل من قتل من المشركين.

وسمع كعب بن الأشر ف ما قال زيد وعبد الله فقال لمن حوله "ويلكم! أحق هذا؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان، وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها".

وتأكد الخبر في المدينة، وتيقن كعب بالذي كان، فخرج من المدينة حتى جاء مكة فأكرموه(31)، وظل ينشد الشعر في رثاء قتلى بدر ويبكيهم ويثير ثارات قريش ويحرضهم على المسلمين، ثم رجع إلى المدينة فتغزل في أم الفضل(32) بنت الحارث وشبب بها فقال:

([31]) الطبري 487/2 عن ابن حميد عن ســـلمة عن ابن اسحق، وعن ابن حميد عن سلمة عن ابن اســـحق عن عبد الله بن أبي برده بن أسير الظفري. وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمر وبن حزم، وعاصم بن عمر بن قتادة، وصالح بن أبي إمامة بن سهل.

امتاع الاسماع 108.

([32]) أم الفضل بنت الحارث بن الحزن الهلالية من بني عامر بن صعصعة.

أراحل أنت لم تحلل بمنقبة	**	وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت	**	من ذى القوارير والحناء والكتم
يريح ما بين كعبيها ومرفقها	**	إذا تأتت قياما ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا	**	والحبل منها متين غير مُنْجَذم
إحدى بني عامر جن الفؤاد بها	**	ولو تشاء شفت كعبا من السقم
فرع النساء وفرع القوم والدها	**	أهل التحية والإيفاء بالذمم
لم أر شمساً بليل قبلها طلعت	**	حتى تجلت لنا في ليلة الظلم

أم الفضل بنت الحارث بن الحَزَن الهلالية من بني هلال بن عامر(33) ابن صعصعة يقال إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة. اسمها لبابة الكبرى وكانت امرأة العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وهي أخت ميمونة زوج النبي ﷺ ولدت أم الفضل للعباس ستة رجال لم تلد امرأة مثلهم وهم الفضل وعبد الله بن عباس الفقيه وعبيد الله الفقيه ومعبد وقثم وعبد الرحمن ثم سابعتهم أم حبيبة.

لها رواية عن عبد الله بن عباس عنها قالت(34) : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفا ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله.

---

(33) الإصابة 1448. الاستيعاب 385/4.

(34) البخاري 234/16-4127.

فدائي متطوع

واستمر كعب يشبب بفضليات النساء من المسلمات ويتغزل فيهن بمثل هذا الشعر البذئ فقال النبي ﷺ من لي من ابن الأشرف؟

كان محمد بن مسلمة شاهداً فقال من فوره: "أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله".

كانت لبابة امرأة مسلمة لها من إسلامها ومن الفضل والمقام ما لها، فإذا تغزل بها وبمثيلاتها يهودي أفّاق في وقاحة كعب وعداوته وشهّر بها ووصف من جسدها وحركتها- صدقا أو كذباً بما شاء له خياله المريض ونفسيته الخبيثة- لأدركنا أي سوء فعل وأي إيذاء أوقع بمشاعر المسلمين. وبالرغم من أن كعباً تغزل وشبب بغير لبابة أم الفضل من فضليات المسلمات فإن أحدا من الرواة لم ينقل شعرا آخر خلاف ما قال فيها. وقد يدلنا هذا على إفراطه في فحش القول إلى الحد الذي أدى بالرواة إلى التعفف عن ذكر ما قال.

كان محمد بن مسلمة عميق الإيمان كما كان ذا لياقة بدنية لهذه العملية الفدائية جاء في صفته أنه كان أسمر شديد السمرة طويلا معتدلا ذا جثة أصلع. وقال بن قتيبة(35) "كان أسود طويلا عظيما أصلع" .

---

(35) المعارف 269.

فقال النبي ﷺ "فأفعل إن قدرت على ذلك" .

وأمره بمشاورة سعد بن معاذ سيد الأوس. وشاور محمد سعدا فأشار عليه أن يضم إليه أربعة من أصحابه ليعينوه. ورجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا النذر اليسير الذي يحفظ به نفسه. وذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه ليسأله: "لم تركت الطعام والشراب؟" . قال: يا رسول الله قلت قولاً لا أدري أفي به أم لا.

قال: إنما عليك الجهد.

قال: يا رسول الله إنه لابد من أن نقول.

يعني يقول ما يتظاهر به ببغض رسول الله ﷺ. وكان معه أصحابه فقالوا: يا رسول الله نحن نقتله فأذن لنا فلنقل.

قال: قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك.

عملية صعبة:

من هذا الحوار بين رسول الله ﷺ وبين محمد بن مسلمة ندرك أن العملية التي اضطلع ابن مسلمة بالقيام بها كانت عملية عسيرة صعبة. فقد كان كعب بن الأشرف يهوديا يعيش في حي بني النضير من منازل اليهود. لم يكن من رعاعهم ولا من دهمائهم بل كان من سراتهم وكبرائهم، فكان له حصن يسكنه. ولم يكن كعب يترك حصنه وينزل إلى المدينة ولا كانت تحركاته معلومة سلفاً لابن مسلمة. ولذلك لم يكن بد من أحد أمرين، إما مهاجمة ابن الأشرف في عرينه وبين قومه. وكيف السبيل إلى ذلك؟ وإما استدراجه خارج قلعته إلى مكان مناسب. وأيضاً كيف يكون ذلك؟ يضاف إلى هذا أن العملية كانت الأولى من نوعها فلم يسبق ابن مسلمة أحد في عمل مماثل. إن الأمر يحتاج إلى تفكير عميق وإلى تخطيط سليم لا يبور.

جماعة الاغتيال

واجتمع في قتل كعب بن الأشرف خمسة نفر

1- محمد بن مسلمة.

2- وأبو نائلة(36) سلكان بن سلامة بن وقش أحد بني عبد الأشهل. وكان أخا كعب في الرضاعة، وقد ذكر المقريزي أن محمد بن مسلمة أيضاً كان أخوهما من الرضاعة.

([36]) شـــهد أبو نائلة أحداً وغيرها وكان شـــاعرًا من الرماة المذكورين. وهو سلكان بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل الأنصاري الأشهلي، أخو سلمة بن سلامة، وقيل كان اسمه سعد وسلكان لقب.(الاصابة 1146 كنى- الاستيعاب 195/4).

3- عباد بن بشر(37) بن وقش من بني عبد الأشهل.

4- الحارث بن أوس بن(38) معاذ من بني عبد الأشهل أيضاً.

5- أبو عبس(39) بن جبر أحد بني حارثة.

فكانوا ثلاثة من بني عبد الأشهل واثنان من بني حارثة وجميعهم من الأوس.

([37]) قالت عائشة"ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلا. كلهم من بني عبد الأشهل، أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وعباد بن بشر" [أخرجه البخاري] كما قال " تهجد رسول الله ﷺ في بيتي فسمع صوت عباد بن بشر فقال:يا عائشة، صوت عباد بن بشر هذا؟ قلت نعم. قال اللهم اغفر له" .

وقد أسلم بالمدينة على يد مصعب بن عمير وذلك قبل إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وشهد بدرا وأحداً والمشـــاهد كلها. وكان له في قتال مسيلمة يوم اليمامة غناء واستشهد يومذاك وهو ابن خمس واربعين ســنة. وهذا يعني أنه كان في السابعة والثلاثين حين شارك في اغتيال ابن الأشر ف. وهو عباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زعواء بن عبد الأشهل. (الاصابة 4455- الاستيعاب 444/2).

([38]) الحارث بن أوس بن معاذ بن النعمان بن أمرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل. وهو ابن أخي ســعد بن معاذ ســيد الأوس وهو الذي زكاه ورشحه لمحمد بن مسلمة في عملية اغتيال كعب بن الأشر ف- كما رشح سائر من شارك فيها- شهد بدرا وذكر بعضهم أنه استشهد يوم أحد وهو ابن ثمان وعشــرين، وينفي غيرهم اســتشهاده يوم أحد ويذكرون خبره في غزوة الخندق/ ففي حديث صــحيح أخرجه أحمد من طريق علقمة بن وقاص عن عائشة قالت " خرجت يوم الخندق فسمعت حساً فالتفت فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مِجَنّه. (الإصابة 1370- الاستيعاب 268/1)" .

([39]) قال بن الأثير: أبو عبيس بن جابر بن عمرو بن زيد بن جشم بن مجدعة حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس. شهد بدرا وكان عمره يومئذ ثمانياً وأربعين سنة وكان هو وأبو بردة يكسران أصنام بني حارثة حين أسلما. توفى سنة 34 وهو ابن سبعين سنة وصلى عليه عثمان ودفن في البقيع ونزل في قبره أبو برده بن نيار وقتادة بن النعمان ومحمد بن مســلمة وســلمة بن سلامة بن وقش. وإذن فقد كان ابن واحد وأربعين حين قتل ابن الأشر ف. وقيل أنه كان يكتب بالعربية قبل الإسلام(الأصابة 734 كنى- الاستيعاب 122/4).

إعداد العملية

وقدموا أبا نائلة إلى كعب قبل أن يأتوه جميعاً وهو الذي كان أخاه من الرضاعة، فجاءه وهو في نادي قومه فتحدث معه ساعة، وكان أبو نائلة يقول الشعر فتناشدا شعرا حتى قام القوم فقال له: ويحك يا ابن الأشر ف! إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم على قال: افعل.

قال: كان قدوم هذا الرجل (يعني الرسول ﷺ) بلاء علينا. عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة. وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا.

فقال كعب: وقد أخذه الغرور وانتشى من تلك النغمة: أنا ابن الأشرف! أما والله لقد كنت أخبرتك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما كنت أقول.

فقال سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك. واكتم عنا ما حدثتك من ذكر محمد.

قال: لا أذكر منه حرفا. ولكن أصدقني ما الذي تريدون في أمره؟

قال: خذلانه والتنحي عنه.

قال: سررتني. فماذا ترهنونني؟

قال: الحلقة (يعني السلاح هو أخص بالدروع).

وأخذت كعب يهوديته فقال: ترهنوني أبناءكم!

قال أبو نائلة: لقد أردت أن تفضحنا. إن معي أصحابا لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه لك وفاء.

لقد أراد سلكان بهذا أن يجئ أصحابه ومعهم السلاح فلا يثير ذلك شكوك ابن الأشرف. قال كعب وقد تنازل عن رهن الأبناء: إن في الحلقة وفاء (يعني كفاية) وقام من عنده على ميعاد.

التنفيذ

ورجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم بما كان واتفقوا أن يأخذوا سلاحهم وينطلقوا إلى غايتهم إذا أمسى لميعاده، واجتمعوا عند رسول الله ﷺ ليلا فمشى معهم(40) إلى بقيع الغرقد وذلك بعد أن صلوا العشاء، ثم قال لهم: "أنطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم" .

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، وساروا هم في ليلة مقمرة مثل النهار حتى انتهوا إلى حصن بن الأشرف في بيوت بني النضير فهتف به أبو نائلة ونادى عليه، كان كعب حديث العهد بالزواج، فلما سمع النداء وثب من فراشه، فقالت امرأته: "إنك امرؤ محارب، وأن صاحب الحرب لا ينزل في مثل هذه الساعة" .

([40]) الطبري 490/2 عن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن نور بن زيد الديلي عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس.

فأجابها كعب: إنه أبو نائلة، لو وجدني نائما لما أيقظني.

قالت: والله إني لأعرف في صوته الشر.

قال: لو دعى الفتى إلى طعنة أجاب.

ثم نزل إليهم فتجاذبوا أطراف الحديث ساعة، حتى قال لهم قائلهم: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز (بظاهر المدينة) فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟

قال: إن شئتم.

فتماشوا ساعة يتحدثون. إن الليالي المقمرة من شهر ربيع الأول من العام الثالث للهجرة قد صادفت الأيام الأولى من شهر سبتمبر 628م فالجو مناسب لرياضة المشي وحديث الليل يحلو. وكان كعب- ربما لحديث عرسه- متعطرا يفوح منه ريح طيب. فوضع أبو نائلة يده في جانب رأسه ثم شم يده وقال ما رأيت كالليلة طيب عطر قط! وبعد أن مشى ساعة أخرى عاد لمثلها حتى اطمأن كعب ثم مشوا فترة أخرى وعاد أبو نائلة إلى كعب فأخذ بفوديه وكان يضفرهما مثل القرون وأمسك بجانبي رأسه وقال: "اضربوا عدو الله" . وسلوا جميعاً سيوفهم فاختلفت عليه فلم تنل منه. وتذكر محمد بن مسلمة مِغْولا(41) كان معه فاستله.

([41]) المغول سـيف دقيق قصـير ماض يكون في جوف سوط ليشده الفاتك على وسطه ليغتال به الناس.

يقول ابن مسلمة: "وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار" فوضعته في تندوءته (سرته) ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، ووقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رأسه أو رجله، أصابه بعض أسيافنا. فخرجنا حتى سلكنا على (منازل) بني أمية ابن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعاث حتى أسندنا (صعدنا) في حرة العريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم فوقفنا له ساعة، ثم أتانا يتبع آثارنا. فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي فسلمنا عليه فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله. وتفل على جرح صاحبنا. ورجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه. فقال رسول الله ﷺ: "من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه". فوثب محيصة بن مسعود على ابن سنينه- رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله- وكان (أخوه) حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة، فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول: أي عدو الله قتلته؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله! قال محيصة: والله لو أمرني بقتلك من أمرني بقتله لضربت عنقك.

فوالله إن كان لأول إسلام حويصة، وقال: لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟

قال: نعم والله، لو أمرني بقتلك لضربت عنقك.

قال: والله أن دينا بلغ بك هذا لعجب! فأسلم حويصة.

تلك رواية الإخباريين من رواة السيرة والتاريخ. وقد أورد الإمام مسلم والإمام البخاري في صحيحهما رواية تختلف قليلا عن هذه- واختلافها يكاد ينحصر في أن الدور الذي نسبه الإخباريون إلى ابن نائلة نسبة رواة البخاري ورواه مسلم إلى محمد بن مسلمة، ونورد هنا الرواية والنص لمسلم عن هذا الحادث الهام تحت عنوان(42) "قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود" قال رسول الله ﷺ من لي بكعب بن الأشر ف فإنه قد آذى الله ورسوله؟

فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله أتحب أن أقتله.

قال: نعم.

قال: ائذن لي فلأقل؟

قال: قل.

فأتاه فقال له وذكر ما بينهما وقال: إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنَّانا! (يعني أوقعنا في العناء). فلما سمعه قال: وأيضاً لتملنه.

([42]) قال البخاري: حدثنا على عن عبد الله حدثنا سفيان قال عمرو سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول...(البخاري شرح الكرماني 209/15).

قال مسـلم: حدثنا إسـحاق بن إبراهيم الحنظلي وعبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسـور الزهري، كلاهما عن ابن عبينة(واللفظ للزهري) حدثنا سـفيان عن عمرو. سمعت جابر يقول... (صحيح مسلم 184/5).

قال: إنّا اتبعناه الآن. ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شئ يصير أمره. وقد أردت أن تسلفني سلفا.

قال: فما ترهنني؟

قال: ما تريد؟

قال: ترهنني نساءكم!

قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟

قال: ترهنوني أولادكم.

قال: يسب ابن أحدنا فيقال رهن في وسقين من تمر؟ ولكن نرهنك الّلأْمة (السلاح).

قال: نعم.

وواعده أن يأتيه بالحارث وأبي عبس بن جبره عباد بن بشر. فجاءوا فدعوه ليلا فنزل إليهم. قالت له امرأته إني لأسمع صوتا كأنه صوت دم(43). قال إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنه ليلا لأجاب. قال محمد إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه فإذا استمكنت منه فدونكم.

فلما نزل، نزل وهو متوشح. فقالوا نجد منك ريح الطيب.

---

(43) يعني صـــوت سافك الدم النووي. وفي رواية البخاري أنها قالت: اسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم.

قال: نعم تحتي فلانه هي أعطر نساء العرب.

قال فتأذن لي أن أشم منه؟

قال نعم، فشم.

فتناول فشم، ثم قال أتأذن لي أن أعود؟ فَاسْتَّمكن من رأسه ثم قال دونكم. فقتلوه.

يقول الطبري(44) وزعم الواقدي أنهم جاءوا برأس ابن الأشر ف إلى رسول الله ﷺ ولم يذكر أحد من الرواة خلاف الواقدي هذا سوى المقريزي ولعله أن يكون قد نقله عنه.

---

(44) الطبري 491/2.

وفي ذلك قال عباد بن(45) بشر (أحد الخمسة):

صرخت له فلم يعرض لصوتي	**	وأوفى طالعا من فوق خدر
فعدت له فقال من المنادي	**	فقلت أخوك عباد بن بشر
وهذي درعنا رهنا فخذها	**	لشهرين وقت أو نصف شهر
فقال معاشر سغبوا وجاعوا	**	وما عدموا الغنى من غير فقر
فأقبل نحونا يسعى سريعا	**	وقال لنا لقد جئتم لأمر
وفي إيماننا بيض حداد	**	مدربة بها الكفار نفري
فعانقه ابن مسلمة المردِّي	**	بها الكفار كالليث الهزبر

(45) الاصابة 1146- الاستيعاب 446/2.

وشد بسيفه صَلْتا عليه	**	وقنطره أبو عبس بن جبر
وكان الله سادسنا فأبنا	**	بأنعم نعمة وأعز نصر
وجاء برأسه نفر كرام	**	همو ناهيك من صدق وبر

وملك الرعب اليهود فجاءت إلى النبي ﷺ يشكون اغتيال كعب ابن الأشرف فقال لهم: "أنه لو فر كما قد فر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف" .

ودعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم معاهدة ففعلوا. ونال اليهود الخوف والذل والحذر من يوم قتل ابن الأشر ف.

اغتيال أبي رافع

وكان أبو رافع وهو سلام بن أبي الحقيق يهوديا آخر يحرِّض(46) على رسول الله ﷺ وكان يسكن خيبر. وكانت الأوس والخزرج تتصاولان تصاول الفحلين لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء للرسول والمسلمين إلا نافستهم الخزرج بفضل يقدمونه، ولا قدمت الخزرج شيئا إلا فعلت الأوس مثله. فلما اغتال محمد بن مسلمة وأصحابه من الأوس كعب بن الأشر ف، أستأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في اغتيال أبي رافع اليهودي بخيبر فأذن لهم. كان خيبر شمالي المدينة بحوالي 175 كيلو مترا على طريق الشام، وقد خرج لقتله أربعة من الخزرج أميرهم خامسهم عبد الله بن عتيك. كان ذلك في النصف من جمادى الآخرة من العام الثالث بعد ثلاثة أشهر من اغتيال كعب بن الأشرف وأتموا عمليتهم بنجاح وعادوا إلى المدينة. يقول ابن حجر العسقلاني(47) في ترجمته لمحمد بن مسلمة: "كان ممن ذهب قتل كعب بن الأشرف وإلى ابن أبي الحقيق". ولكننا نميل إلى أن ابن مسلمة قتل ابن الأشرف ولم يشترك في قتل ابن أبي الحقيق. وفي اغتيال اليهوديين قال حسان بن ثابت:

---

(46) الطبري 495/2 عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحق.

(47) الاصابة 7808.

لله در عصابة لاقيتهم	**	يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يسرون بالبيض(48) الخفاف إليكم	**	مرحا(2) كأسد في عرين مغرف(3)
حتى أتوكم في محل بلادكم	**	فسقوكم حتفا ببيض ذفف(4)
مستبصرين لنصر دين نبيهم	**	مستضعفين لكل أمر مجحف

(48) هي السيف.

(2) نشاطاً

(3) في غريف وهو الأجمة من البردي والحلفا والبوص .

(4) ذفف سريعة القتل

الاغتيال السياسي

هكذا قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، وهكذا قتل أبو رافع اليهودي. وقد يثير الأسلوب الذي اتبع في قتلهما قضية. إنهما لم يقتلا مواجهة في ميدان قتال ولكنهما قتل اغتيالا، فهل يعني هذا أن الإسلام يبيح الاغتيال السياسي؟

لقد كان بين المسلمين واليهود حلف ومعاهدة بعدم الاعتداء، ولم ينقض المسلمون الحلف. كل ما حدث أن انتصروا على قريش التي آذتهم واضطهدتهم وأخرجتهم من ديارهم وصادرت أموالهم. ولم يكن بين اليهود وبين قريش أية أحلاف تربطهم بها. وعلى ذلك فلا تفسير لمسلك كعب الذي استحق به الاغتيال إلا أن حلف اليهود مع المسلمين لم يكن جادا من جانب اليهود، وإنما كان مرحلة أرادوا بعدها شيئا آخر، وأن احترامهم لذلك الحلف لم يكن ليعنيهم إلا في انتهاز فرصة مواتية للانتقاض، فيمثلون بها قصة الذئب والحمل، فما أن وقعت غزوة بدر وانجلت عن فوز المسلمين حتى كانت مفاجأة مذهلة للمخطط اليهودي الحاقد المتربص، فراحوا يضربون على غير هدى وبدت البغضاء من أفواههم وما أخفت صدورهم أكبر.

وإذن نستطيع القول إن المبرر الشرعي لاغتيال كعب وأي يهودي كان على مثل موقفه هو كما ذكر ابن القيم لنقضهم عهده ومحاربتهم لله

ورسوله(49). كذلك قال إن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حربا له بذلك ولم يبق بينهم وبينه عهد، فله أن يبيِّتهم في ديارهم ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء (يعني لا يحتاج إلى إعلان الحرب) وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة. فإذا تحققها صاروا نابذين لعهده(50). وينتقض عهد جميعهم بذلك من باشر منهم الانتقاض ومن لم يباشره إذا رضوا بذلك وأقروا عليه ولم ينكروه. كما ذكر ابن القيم في معرض فتح مكة أنه يجوز مباغتة المعاهدين إذا نقضوا العهد والإغارة عليهم وأن لا يعلمهم بمسيره إليهم(51).

([49]) زاد المعاد 91/2.

([50]) زاد المعاد 169/2.

([51]) زاد المعاد 171/2.

غزوات أخرى وسرايا
ابن مسلمة في غزوة أحد

ودار العام من يوم بدر فخرجت قريش ومعها حلفاؤها تريد الثأر من هزيمتها يومذاك. كانوا ثلاثة آلاف، وخرج رسول الله ﷺ في المسلمين للقائهم وكانوا ألفاً غير أن عبد الله بن أبي بن سلول أنخذل عنهم في ثلاثمائة من المنافقين، تركوهم ورجعوا إلى المدينة فبقى سبعمائة هم الذين خاضوا المعركة، وفي أنخذال عبد الله بن أبي أوشكت بنو حارثة من الأوس " قوم محمد بن مسلمة" وبنو سلمة من الخزرج وكانوا مجنبتي المسلمين أن يرجعوا معهم ولكنهم عادوا فثبتوا، ونزل فيهم قوله(52) تعالى: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} وأدرك المسلمين الليل فصلى بهم الرسول ﷺ العشاء واستعمل على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلا يطوفون بمعسكرهم حتى أصبحوا، ثم واصلوا سيرهم إلى أحد حتى بلغوه وهم يرون المشركين وحانت صلاة الصبح فصلوها ثم صف الرسول ﷺ صفوفه وقد جعل الرماة خمسين عليهم عبد الله بن جبير بأعلى شعب من شعاب أحد اختاره رسول الله ﷺ ميداناً للمعركة.

---

(52) تفسير القرطبي- آل عمران 122.

وكان في المسلمين مائة دارع (في دروعهم) وكان في المشركين سبعمائة دارع، وكان للمسلمين فَرَسان وكان للمشركين مائتا فرس جعلوها ميمنة عليها خالد بن الوليد وميسرة عليها عكرمة بن أبي جهل.

لم يكن هناك في الواقع تكافؤ بين القوتين، ولذلك أراد الرسول ﷺ أن يعوض ذلك فاختار ميدان المعركة شعباً من شعاب جبل أحد وحماه بالرماة من أعلاه حتى يكون ملاذا وموئلا للمسلمين، وأمر الرماة ألا يبرحوا أماكنهم حتى يظل ذلك الشعب حِمى للمسلمين. وبدأ القتال بغلبة المسلمين على عدوهم فولوا الأدبار والمسلمون يتبعونهم، وهنا هبط الرماة من أعلا الجبل ليساهموا في المطاردة والغنيمة فدار خالد بن الوليد بفرسانه وارتقى الجبل، وجاء المسلمين من خلفهم وانقلب نصر المسلمين إلى هزيمة، وقد أحيط بهم على ما هو معروف مستفيض في أخبار السيرة. لم يعد للمسلمين لواء قائم ولا فئة ولا جمع وكانت قبائل المشركين تنالهم من كل جانب مقبلة ومدبرة في الوادي يلتقون ويفترقون ما يردهم أحد، وقد تبعثر المسلمون وشاع في الناس أن الرسول ﷺ قتل.

في هذا الموقف الشديد ثبت مع النبي ﷺ خمسة عشر رجلا(53) من أصحابه ثمان من المهاجرين هم أبو بكر وعمر وعلي وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام، وسبعة من الأنصار هم الحباب بن المنذر وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف وسعد بن عبادة وصاحبنا محمد بن مسلمة. هؤلاء ظلوا حوله حتى عاد المسلمون يجتمعون عليه في وجه اكتساح المشركين حتى استطاعوا أن يقفوا على أقدامهم، فعادت قريش إلى معسكرها.

وخرجت السيدة فاطمة في النساء فلما رأت ما بوجه رسول الله من جراح اعتنقته وراحت تمسح الدم عن وجهه. وجاء عليٌّ بماء في ترسه وكان رسول الله ﷺ قد عطش عطشاً شديداً فلم يستطع أن يشرب منه لكراهة ريحه فتمضمض منه من الدم الذي كان في فمه وغسلت فاطمة دمه. وخرج محمد بن مسلمة(54) عند النساء يبحث عن الماء فلم يجد، وكن قد جئن يسقين الجرحى. فذهب إلى قناة فحفر فيها الرمل حتى بلغ الماء فأتى بماء عذب شرب منه رسول الله ﷺ ودعا له.

وانصرف المشركون وقد توعدوا المسلمين من عامهم القابل. وتفرغ المسلمون لقتلاهم، فقال رسول الله ﷺ: "من رجل ينظر لي ما فعل سعد ابن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟".

---

(53) أمتاع الأسماع 131.

(54) امتاع الأسماع 138.

فقال محمد بن مسلمة(55): أنا انظر لك يا رسول الله ما فعل سعد. فذهب فنادى في القتلى: يا سعد بن الربيع، مرة بعد مرة فلم يجبه أحد حتى قال: يا سعد إن رسول الله ﷺ أرسلني أنظر ما صنعت. أفي الأحياء أنت أم في الأموات. فأجابه حينئذ بصوت ضعيف: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام. وقل له أن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم أنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف.

فلم يبرح ابن مسلمة حتى توفى ابن الربيع. فجاء رسول الله فأخبره. ويروى(56) محمد بن مسلمة عن يوم أحد قال: رأيت على رسول الله ﷺ يوم أحد درعين درعه ذات الفضول ودرعه فضة. ورأيت عليه يوم خيبر درعين ذات الفضول والسعدية. وكما شهد محمد بن مسلمة غزوة أحد فقد شهدها معه ابنه عبد الرحمن. وعادت ألسنة اليهود والمنافقين تنال المسلمين بالشماته والقول السيئ والمسلمون صابرون.

([55]) قاله السهيلي وذكره الواقدي أما أبو عمر فقد ذكر في كتاب الصحابة أن الذي التمس سعداً في القتلى هو أبي بن كعب "سيرة ابن هشام95/3- الهامش" .

([56]) الطبري 177/3 عن الحارث عن ابن مسعد عن محمد بن عمر عن موسى بن عمر عن جعفة بن محمود عن محمد بن مسلمة.

غزوة بني النضير

بعث رسول الله ﷺ سبعين من الأنصار (وبعضهم قال أربعين) إلى نجد لدعوة من به إلى الإسلام في شهر صفر من العام الرابع من الهجرة (يوليو/أغسطس) فلما كانوا عند بئر معونة بين أرض بني عامر ابن صعصعة وحرة بني سليم، خرجت عليهم بنو سليم فأحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعاً إلا واحداً تركوه وبه رمق. وقتل عمرو بن أمية الضمري اثنين من بني عامر بن صعصعة خطأ وهو يظن أنه أصاب ثأراً لشهداء بئر معونة، وكان معهما عهد وجوار من رسول الله ﷺ، فكان على رسول الله أن يؤدي ديتهما.

فذهب رسول الله إلى قباء فصلى بها ثم مال إلى بني النضير ليستعين بهم في أمر الدية، وكان معه نفر من المهاجرين(57) والأنصار دون العشرين فيهم أبو بكر وعمر وعلي وقد كان بين بني النضير وبني عامر حلف.

وقال يهود بني النضير: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه.

(57)الطبري 551/2 عن ابن حميد عن سلمة عن محمد إسحاق.

ثم خلوا إلى بعضهم فتداولوا الأمر ووجدوها فرصة لقتل الرسول ﷺ والتخلص منه، كان جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم فتطوع واحد منهم يدعى عمرو بن جحاش ليصعد إلى أعلى الدار ويلقي عليه صخرة يقتله بها، وكان ذلك بتدبير ورأى حيي بن أخطب. وعلم النبي بما يدبرون فقام من المجلس ورجع إلى المدينة وأمر بالتجهز لحربهم والسير إليهم، كان ذلك في ربيع الأول أو جمادى الأولى(58).

وقال: ادعوا لي محمد بن مسلمة "فلما جاء قال له رسول الله ﷺ: "اذهب إلى يهود فقل لهم اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم من الغدر".

وجاءهم محمد بن مسلمة فقال لهم: "إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تظعنوا من بلاده، فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر، وقد أجلكم عشراً فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه" .

فقالوا: "يا محمد ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس!".

فقال محمد: "تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود" .

فقالوا: "نتحمل" .

وأرسل إليهم كبير المنافقين عبد الله بن أبي يقول لهم: "لا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إليّ من قومي ألفين، فأقيموا فهم يدخلون معكم وقريظة تدخل معكم".

---

(58) أمتاع الأسماع 178.

وبلغ ذلك كعب بن أسد سيد بني قريظة فقال: "لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي" .

وأرسل بنو النضير إلى النبي: "إنا لا نريم دارنا (لا ندعها) فاصنع ما بدا لك" فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون وأرسل بنو النضير يستمدون عبد الله بن أبي فتقاعس عن نصرتهم. وكان كما قال ﷺ "آية المنافق ثلاث، إذ حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان" وحاصرهم المسلمون خمسة عشر يوماً حتى أجهدوا، فصالحوا النبي على أن يحقن(59) دماءهم وأن يخرجوا من أرضهم وديارهم فيسيرهم إلى أذرعات بالشام وأن يترك لكل ثلاثة منهم بعيرا بكل ما حمل وسقاء وأن له الأموال.

وخرج بنو النضير(60) من ديارهم بنسائهم وأبنائهم وما حملوا من أموالهم وأخشاب بيوتهم، معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم في محاولة للتجلد ولإظهار علو روحهم المعنوية، فساروا من خلال سوق المدينة والنساء في الهوادج عليهن الحرير والديباج وحلي الذهب والمعصفرات وقد صف الناس يشاهدونهم وهم يمرون فكانوا على ستمائة بعير. فنزلوا خيبر. ومنهم من سار إلى الشام.

---

(59) الطبري 553/2 عن الواقدي وعن محمد بن سعد.

(60) الطبري 554/2 عن ابن إسحاق (امتاع الاسماع).

وقد تولى إخراجهم محمد بن مسلمة. وكانوا حين يئسوا في حصارهم يخربون بيوتهم بأيديهم وكذلك كان المسلمون يخربون ما ينالون منها. فكان سلام بن أبي الحقيق وكنانه بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب ممن نزل خيبر فدان لهم أهلها. وقسم رسول الله ﷺ أموالهم على المهاجرين من دون الأنصار عوضاً لهم عما فقدوا في مكة. وعلى أي حال فإن استغناء فقراء المهاجرين بهذه الأموال قد خفف -ماديا- عن كواهل الأنصار الذين آخوهم وآثروهم بصدور رحبة على أنفسهم .

وقد حزن المنافقين لإجلاء بني النضير أشد الحزن. وكان مما غنم النبي ﷺ من بني النضير خمسين درعا وخمسين بيضة (خوذة) وثلاثمائة وأربعين سيفا. فأعطى رسول الله ﷺ سيف ابن أبي الحقيق إلى سعد بن معاذ وكان سيفاً له ذكر.

ثلاث غزوات أخرى

ثم كانت غزوة ذات الرقاع(61) إلى نجد في العام الرابع أو في شهر محرم من العام الخامس من الهجرة. خرج النبي ﷺ بالمسلمين يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، ولم يحدث فيها اشتباك، وفي هذه الغزوة شرعت صلاة الخوف.

ثم كانت غزوة بدر الموعد في ذي القعدة 4هـ حين دار الحول من يوم غزوة أحد. وحان موعد وعيد قريش. غير أن قريش لم تخرج في موعدها متعللة بالقحط الذي أصابهم عامها. واتجر المسلمين في بدر وكان يقام فيها سوق كل عام. ثم رجعوا إلى المدينة وقد ربح درهمهم درهمين.

وفي شهر ربيع الأول من العام الخامس غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل. ونذهب إلى أن محمد بن مسلمة شهد هذه الغزوات.

غزوة الخندق

وقعت غزوة الخندق في شوال من العام الخامس الهجري على ما ذهب إليه أكثر الرواة وقد جعلها البخاري في شوال العام الرابع. وغزوة الخندق من أهم الغزوات الكبرى في صدر الإسلام، وذلك أنها كانت نقطة تحول في سير الحرب بين المسلمين والمشركين باعتبار أنها كانت آخر هجوم وثني مسلح على المدينة.

---

(61) الطبري 555/2 عن ابن إسحق والواقدي.

وقد مر بنا كيف أخرج رسول الله ﷺ بني قينقاع، ثم بني النضير من المدينة، الأمر الذي زاد من حقدهم عليه وعداوتهم له وللمسلمين، كذلك قدروا نتائج هذه الدولة الناشئة وما سوف يكون من نتائج انتشار هذا الدين الجديد على أوضاعهم، فخرج منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع في حملة دعاية ونشاط سياسي هدفه شرح خطورة الإسلام ومجتمعه على الوثنية ومصالح الوثنيين، وتجميع أكثر ما يمكن من قبائل شبه الجزيرة لمعركة كبرى تستهدف غزو المدينة واقتحامها واستئصال شأفة المسلمين. هؤلاء اليهود من بني النضير انضم إليهم نفر من بني وائل فبدءوا بالقدوم على قريش بمكة، ولم يكن عسيراً على هذا الوفد أن يعقد ذلك الاتفاق مع قريش. ثم خرجوا من مكة حتى أتوا غطفان من قيس عيلان ودعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً تابعوهم على ذلك. إنها معركة ناجحة مضمونة إذًا. فانضمت إليهم غطفان. وفي روايات أنهم اتفقوا أيضا مع بني أسد(62).

([62]) الطبري 565/2 عن محمد ابن إســـحق عن يزيد بن رومان مولى لآل الزبير عن عروة بن الزبير ومن لا يتهم عن عبيد الله بن كعب بن مالك، وعن الزهري وعن عاصم بن عمر بن قتادة وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن محمد بن كعب القرظي وعن غيرهم أمتاع الأسماع.

أسفرت هذه الجهود عن حشد عشرة آلاف من تلك القبائل، والغريب في هذا الحشد أنه لم يكن فيه من اليهود إلا أولئك النفر الثلاثة المحرضون، وكذلك دأبهم على مدى تاريخهم. يحاربون بغيرهم! ولم يكن المسلمون سوى ثلاثة آلاف، عادوا يقلبون الأمر فيما بينهم ويتشاورون فيه. هل يخرجون لملاقاتهم خارج المدينة أم يتحصنون فيها مستفيدين بما تتيحه لهم بيوتهم ومنازلهم من ميزات دفاعية؟ أو بتعبير عصري، هل تكون معركة صحراوية أو جبلية أو تكون معركة مدن ومناطق مبنية؟ ثم جاء اقتراح من سلمان الفارسي استقاه من معرفته بالأساليب الفارسية في الحرب، فعرض فكرة حفر الخندق في الجانب المكشوف من المدينة وأن يقفوا وراءه مدافعين. وراقت الفكرة لرسول الله ﷺ فقبلها وشرع في تنفيذها، فإن الآلآف العشرة على الطريق إليهم والمسلمون إذاً في صراع مع الزمن من أجل عقيدتهم ودينهم ومن أجل حياتهم وحياة نسائهم وأطفالهم.

وخط رسول الله ﷺ على الأرض مكان الحفر بشمال المدينة وقسمه فيما بن المسلمين فجعلهم عشرات. كل عشرة مجموعة كلفها بحفر أربعين ذراعا، ثم شرعوا في العمل، فكانت ميمنة الخندق تستند إلى بيوت بني حارثة (قوم محمد بن مسلمة) وكانت ميسرته تنتهي في المذاد عند جبل سِلْع. وأمر النبي بإحراز النساء والأطفال في الآطام (الحصون) وكان حصن بني حارثة من أقوى حصون المدينة وكانت به عائشة أم المؤمنين وأم سعد بن معاذ.

ثم جاءت الأحزاب ففوجئت بالخندق، إنه أسلوب مبتكر لم يكن لهم به عهد من قبل، وهو عميق لا يسهل اجتيازه، فماذا يفعلون؟ كان لابد للمخطط اليهودي الذي جمع هذا الحشد أن يجد حلا حتى لا يضيع حقده وجهده هباء منثورا. وقد وجدها! هناك على الطرف الآخر بجنوب المدينة تقع منازل وحصون بني قريظة، وهم يهود أمثالهم. فلو فتحوا لهم أبوابهم وانضموا إليهم لجاءوا المسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم واقتحموا عليهم مدينتهم من الجانب المقابل الذي لم يستعدوا له ولم يحسبوا حسابه. فسار حيي بن أخطب إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وظل به حتى اتفق معه على نقض ما بينه وبين رسول الله ﷺ وشق الأمر على المسلمين واشتد خوفهم وظهر النفاق.

روى محمد بن مسلمة عن غزوة الخندق فقال: "كان ليلنا بالخندق نهارا. وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوما، ويغدو خالد بن الوليد يوما، ويغدو عمرو بن العاص يوما، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوما. ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوما، ويغدو ضرار ابن الخطاب يوما، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفا شديدًا".

ورمى حبان بن قبس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل(عرق الذراع) وقال "خذها وأنا ابن العرقة" فقال سعد "عرق الله وجهك في النار. اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم(63) من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فأجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة" وقد كان بنو قريظة حلفاءه ومواليه في الجاهلية.

في ذلك الموقف الضنك والبلاء الشديد أسلم نعيم بن مسعود أحد بني غطفان، فتسلل من معسكر قومه حتى جاء رسول الله ﷺ فأخبره بإسلامه وكان له في تلك الغزوة شأن. كان نعيم معروفا لدى بني قريظة وكثيراً ما كان يزورهم، فذهب إليهم وأفهمهم أن الأحزاب قد عزمت على الرجوع وحينئذ سوف ينفرد بهم المسلمون كما فعلوا سابقا ببني قينقاع وبني النضير. إنه تصوير مفزع! ثم نصحهم بطلب رهائن من قريش ومن غطفان حتى يضمنوا وقوفهم إلى جانبهم في خيانتهم عهدهم مع النبي. وفعل نعيم مثل ذلك مع قريش ومع غطفان، فذكر لهم أنه كان عند بني قريظة وعلم وهو هناك أنهم ندموا على نقضهم عهدهم مع المسلمين ورجعوا عن ذلك مقابل رهائن يطلبونها من قريش وغطفان فيسلمونهم إلى محمد ليقتلهم على أن يعيد بني النضير إلى ديارهم.

---

[63] الطبري 575/2 عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق.
البخاري 40/16

ولم تلبث الأحزاب أن طلبت من بني قريظة أن تخرج للحرب، فطلبت قريظة الرهن فتأكدت لدى الأحزاب فتنة نعيم ورفضت أعطاء الرهائن، وبذلك استوثقت قريظة من كلام نعيم، ويئس كل طرف من معونة الطرف الآخر كان الفصل شتاء وأشتد البرد وتوالت الأيام والأحزاب على موقفها، ثم انهار أملها في معونة بني قريظة فانصرفوا راجعين، وعاد المسلمون عن الخندق إلى منازلهم.

ابن مسلمة في بني قريظة

بعد ما كان من نقض بني قريظة عهدهم وخيانتهم له، خرج رسول الله ﷺ والمسلمون إليهم، وقد كان ذلك بأمر من الله لنبيه أنبأه به جبريل عليه السلام وحاصرهم المسلمون شهرا- أو خمساً وعشرين ليلة(64)- فلما اشتد عليهم الحصار قيل لهم " انزلوا على حكم رسول الله ﷺ فقالوا "ننزل على حكم سعد بن معاذ" فبعث إليه رسول الله بحمار فجئ به عليه، وكان مازال جريحاً منذ رماه ابن العرقة من وراء الخندق.

([64]) الطبري 583/2 عن ابن وكيع عن محمد بن بشـــر عن محمد بن عمرو عن أبيه عن علقمة عن عائشة.

ويذكر الرواة أن نفرا من اليهود لم يكونوا من بني قريظة ولا من بني النضير، وإنما كانوا بني عمهم ويتصلون بنسبهم من فوق ذلك وهم ثعلبة بن سعيه وأسيد بن سعيه وأسد بن عبيد وهم من بني هدل وكانوا مع قريظة في مساكنهم أسلموا في الليلة التي نزلت قريظة فيها على حكم رسول الله ﷺ كما خرج أحد بني قريظة وهو عمرو بن سعدى فمر بحرس رسول الله ﷺ وكان يرأسه تلك الليلة صاحبنا محمد بن مسلمة، فلما رآه محمد صاح به: "من هذا؟". قال: "عمرو بن سعدي" . وكان عمرو قد أبي أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم وقال "لا أغدر بمحمد أبدا" . فقال ابن مسلمة حين عرفه: "اللهم لا تحرمني عثرات الكرام" . ثم خلى سبيله، فمشى حتى بات في مسجد الرسول بالمدينة ليلته، ثم ذهب فلم يعلم أحد بعد ذلك أين ذهب من أرض الله. ولما علم رسول الله بخبره قال "ذاك رجل نجاه الله بوفائه" . فلما أصبحوا استسلمت بنو قريظة، فوكل رسول الله ﷺ أمرهم إلى محمد(65) بن مسلمة فاستنزلهم من حصونهم ثم جعلهم في ناحية وأخرج النساء والذرية فجعلهم في ناحية ووكل أمرهم إلى عبد الله بن سلام. وأشرف على تكتيفهم وأخذت الأوس حمية من الوفاء لعهود ما قبل الإسلام فتواثبوا وقالوا: "يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت يقصدون بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج".

---

(65) أمتاع الأسماع 245، السيرة النبوية لابن هشام 238/3.

فقال: "ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟!"

قالوا: "بلى" .

قال: "فذاك إلى سعد بن معاذ" .

وجاء سعد جريحا قد حملوه على الحمار الذي بعث به إلى النبي ﷺ وبنو الأوس يقولون له: "يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم".

قال: "قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم" .

فرجع بعض منهم إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد.

وكان حكم سعد "إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن تقسم أموالهم" .

فقال رسول الله ﷺ: "لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله" .وتم تنفيذ الحكم فيهم وهم بين الستمائة إلى السبعمائة، وأكثر الرواة تقديرا لهم يقول كانوا من الثمانمائة إلى التسعمائة. وكان ذلك يوم الخميس السابع من ذي الحجة من العام الخامس الهجري. وبعد أن انتهى أمر بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ وأسلم الروح إلى بارئها وهو في خيمته التي كان يمرض بها في مسجد الرسول.

وجُمعت أمتعة(66) بني قريظة فكان فيها ألف وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفا رمح وألف وخمسمائة ترس وحجفه وأثاث كثير وآنية كثيرة وشئ كثير من الماشية وعدد من الإبل، كما وجدوا خمورا فأراقوها.

بذلك لم يعد في مدينة رسول الله ﷺ يهودي واحد، ولم تطأها قدم يهودي يعرف حتى يومنا هذا. وبإعدام بني قريظة صار أقرب يهود إلى المدينة هم أولئك الذين يعيشون في خيبر على مسافة 150 كيلو مترا شمالي المدينة على طريق الشام.

سرية القرطاء(67)

من حين لآخر كانت بعض القبائل تتآمر على المسلمين أو تحشد لهم، فكان رسول الله ﷺ يخرج إليهم بنفسه في المسلمين غازيا أو يرسل إليهم سرية يؤمر عليها كفؤا من أصحابه. من ذلك هذه السرية التي أرسلها إلى القرطاء(68) من بني بكر بن كلاب بناحية ضريه بالبكرات وكانت ضريه على مسافة سبع ليال من المدينة من ناحية نجد. (حوالي 315 كيلو مترا) .

---

(66) أمتاع الأسماع 245.

(67) أمتاع الأسماع 256.

(68) القرطـــاء هم قرط وقريط وقريطة بنو عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.(جمهرة أنساب العرب 282) .

كانت السرية من ثلاثين رجلا يقودها محمد بن مسلمة، وقد خرجت من المدينة في العاشر من شهر محرم من العام السادس للهجرة، وغاب ابن مسلمة بها تسع عشرة ليلة فكانت عودته قبل انقضاء محرم بليلة. وكان محمد يسير الليل ويكمن بالنهار حتى يفاجئ القوم، ونلحظ مناسبة اختيار التوقيت للمهمة، فإذا بدأت السرية سيرها من اليوم العاشر ولمدة سبعة أيام، فمعنى هذا أنها اعتمدت على الرؤية القمرية في هذا السير فيما بين العاشر والسابع عشر من الشهر حين يزدهر القمر ويكون ضوؤه أسطع ما يكون، لا سيما أن الفصل كان صيفا لا سحاب فيه ولا غمام، فقد صادف تاريخ السرية شهر يونيه من عام 627م .

فلما كان بالشربة لقى قوما من بني محارب، فأغار عليهم فقتل بعضهم وفر سائرهم واستولى على بعض الماشية والشاء. ثم سار وبعث عباد بن بشر ليأتيه بخبر بني بكر بن كلاب، وعاد إليه عباد بمكانهم وخبرهم فشن عليهم غارة أخرى وقتل منهم عشرة واستاق أنعامهم وشاءهم ورجع بها إلى المدينة فكانت مائة وخمسين بعيرا وثلاثة آلاف شاة.

لم نقف على أسماء أخرى ممن كان في سرية محمد بن مسلمة، وحين يظهر لنا اسم عباد بن بشر بن وقش وهو من بني عبد الأشهل وأحد الذين شاركوا ابن مسلمة في اغتيال كعب بن الأشرف ربما دلنا هذا وقيادة ابن مسلمة للسرية على أنها كانت من الأوس خاصة.

هذه الأنعام التي غنمتها سرية محمد بن مسلمة وزعت على المسلمين كغنائم حرب، فما كان منها لرسول الله ﷺ بالإضافة إلى ما أصابه من غزوة ذات الرقاع أرعاها مراعي المدينة من البيضاء والغابة، وكانت عشرين ناقة وكان راعيها يرجع بلبنها كل ليلة عند المغرب. هذه اللقاح هي التي أغار عليها عيينة بن حصنة واستاقها ليلة الأربعاء الثالث من ربيع الأول 6هـ فكانت غزوة الغابة واستنقذ المسلمون عشرا منها.

وفي هذا العام السادس أيضاً كانت غزوة بني لحيان في جمادى الأولى، وغزوة بني المصطلق التي وقع فيها حديث الإفك، ثم غزوة ذي قرد في ذي الحجة. ونذهب إلى أن محمد بن مسلمة كان فيها جميعا.

وفي هذه الغزوة الأخيرة غزوة ذي قرد- حين جاء الفزع جال فرس(69) لمحمود بن مسلمة بجذع نخل بالبستان كان مربوطا فيه حين سمع الخيل تصهل، وكان فرسا يخدمه صاحبه ويقوم عليه، فقال نساء من بني عبد الأشهل لمحرز بن نضله: "هل لك في أن تركب هذا الفرس فإنه كما ترى ثم تلحق برسول الله ﷺ وبالمسلمين؟" قال نعم، فأعطينه إياه.

فخرج عليه فلم يلبث أن سبق الخيل حتى أدرك المشركين فحمل عليه رجل منهم فقتله وجال الفرس مرة أخرى وعاد حتى وقف على مواقف بني عبد الأشهل، فلم يقتل من المسلمين يومئذ غيره

---

(69) السيرة النبوية 283/3.

وسرية إلى ذي القصة

وفي شهر ربيع الأول- بعد شهرين من سريته إلى القرطاء- بعث رسول الله ﷺ محمد بن سلمة إلى مائة رجل من بني ثعلبة وبني عوال من بني سعد بن ثعلبة بن ذبيان(70) وكانوا في ذي القصة، وهو موضع كان على بريد من المدينة (والبريد 22 كيلو مترا) من جهة نجد على طريق العراق. كانت سرية ابن مسلمة قليلة العدد إذ كانوا عشرة رجال فساروا حتى بلغوا مقصدهم ليلا فناموا. وشعر بمقدمهم بنو ثعلبة فأحاطوا بهم وهم نائمون، فانتبه المسلمون فزعين وترامو ساعة بالنبل. ثم حمل أعراب بني ثعلبة بالرماح على سرية ابن مسلمة فأصابوهم جميعا. قتلت السرية عن آخرها إلا محمد بن مسلمة فقد سقط وترك جريحا فحمل بعد ذلك إلى المدينة.

وفي شهر ربيع الآخر بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح (الذي آخى رسول الله بينه وبين محمد بن مسلمة) إلى ذي القصة ومعه أربعون رجلا، تقول الرواية عن سبب السرية إن بلاد بني ثعلبة وأنمار قد أجدبت فتتبعوا سحابة حتى أمطرت فيما بين المِراض وتَغْلَمَينْ (على ست وثلاثين ميلا من المدينة) ثم قرروا أن يغيروا على بطن هَيْفا، وقد كان سرحا للمدينة (مرعى) على سبعة أميال منها. ومهما قيل عن هذه الأسباب لبعث السرية فلابد أن يكون لما أصاب سرية محمد بن مسلمة بذلك صلة.

"(70)أمتاع الأسماع 264.

فقد كان رد اعتبار المسلمين أمراً له أهميته على مشارف المدينة من جهة الشمال، فإن ذا القصة موضع له أهميته من الناحية الاستراتيجية، فهو مع قربه من المدينة كان زاخرا بالعناصر المعادية من الأعراب الذين لم يؤمنوا وكانوا ميالين إلى عمليات الإغارة والسطو. وسوف نرى بعد ذلك أن مرتدِّي عبس وذبيان اجتمعوا بذي القصة يريدون غزو المدينة عام 11هـ بعد وفاة رسول الله ﷺ فآثر أبو بكر أن يبدأهم ودهمهم ليلا فيها. ويبدو أهمية ذلك الموقع من قول أبي بكر رضي الله عنه وهو مريض مرض الموت: "وددت أني حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذى القصة فإن ظفر المسلمون ظفروا، وإن هزموا كنت بصدر لقاء أو مدد(71)" .

على أي حال لقد أغار أبو عبيدة على القوم فهربوا فأسر رجلا وغنموا أنعاما وبعض المتاع عادوا بها إلى المدينة.

في عمرة الحديبية:

في ذي القعدة من العام السادس للهجرة خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة معتمرا لا يريد حرباً، وخرج معه عدد من أصحابه اختلف تقديره كثيراً بين الرواة بين مائة وأربعة عشر إلى سبعمائة، إلى ألف وثلاثمائة، إلى ألف وأربعمائة، إلى ألف وخمسمائة وعشرين. وصدت قريش المسلمين منعتهم من بلوغ البيت

---

(71) الطبري 431/3.

فبعث رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي على جمل للنبي ليبلغ أشراف قريش أنه إنما جاء معتمرا، فتصدى له عكرمة بن أبي جهل وقتل الجمل وأراد قتل خراش لولا أن منعه من بمكة من بني خزاعة فرجع خراش فبعث النبي ﷺ عثمان بن عفان فلم يستجيبوا له وأجاره أبان بن سعيد، في حين أذن النبي ﷺ لبعض المسلمين بدخول مكة لرؤية أهليهم. في ذلك الوضع المتوتر كان يتناوب قيادة حراسة المسلمين بالحديبية ثلاثة، أوس بن خولي، وعباد بن بشر ومحمد بن مسلمة. وبعثت قريش مكرز بن حفص على خمسين رجلا ليصيبوا من المسلمين غرة، فظفر بهم محمد بن مسلمة وساقهم إلى رسول الله ﷺ وكان قد تناهى إلى النبي أن عثمان بن عفان قد قتل بمكة- وكان قد أقام بها ثلاثا- وأنه قتل معه عشرة من المسلمين الذين أذن لهم بزيارة أهلهم، فحبس النبي أسرى محمد بن مسلمة. وبلغ قريشا حبس أصحابهم فجاء جمع منهم ورموا المسلمين بالنبل والحجارة فجاوبوهم بالمثل وقتل من المسلمين رجل. فحمل المسلمون السلاح واجتمعوا إلى رسول الله ﷺ فبايعهم على ألا يفروا وقيل بايعهم على الموت.

وجاء سهيل بن عمرو رسولاً من قريش إلى النبي ﷺ للتفاوض في الصلح فتبادل الطرفان الأسرى وتصالحوا على أن يرجع المسلمون من عامهم ذاك، ثم يعودوا من العام التالي، فيقيموا بمكة ثلاثة أيام للعمرة. كما اتفقوا على هدنة مقدارها عشر سنوات (وقيل أربع وقيل سنتان) وعلى الحرية الدينية،

وعلى أن من يأتي إلى رسول الله مسلماً من قريش يرده إليهم، ومن يأتي قريشاً مرتداً من المسلمون لم يردوه. وشهد على كتاب الصلح ست من كبار المسلمين، واثنان من المشركين. فكان الشهود المسلمون أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة، فكان الشاهد الوحيد من الأنصار. وذكر ابن هشام(72) أن الشهود كانوا أبا بكر الصديق وعمر ابن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن مسلمة (وليس محمدا) ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك وعلي بن أبي طالب.

هدية من المقوقس

وفي ذي الحجة(73) من العام السادس- وقد هدأت الأمور مع قريش بصلح الحديبية- بعث رسول الله ﷺ ستة من أصحابه إلى الملوك المتاخمين من العجم والعرب فكان: حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس كبير أقباط مصر.

وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، ودحيه ابن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم بالشام وسليط بن عمرو العامرى إلى هوذة ابن على الحنفي، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى برويز، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشي.

بعثهم إلى من ذكرنا لدعوتهم إلى الله ودين الإسلام.

([72]) السيرة النبوية 319/3.

([73]) الطبري 644/3.

ولا يهمنا فيما يختص بمتابعة محمد بن مسلمة من هؤلاء سوى ما كان من أمر المقوقس، ذلك أنه لما مضى(74) حاطب بكتاب رسول الله ﷺ قبل المقوقس الكتاب وأكرم حاطباً وأحسن نزله، ثم رده إلى رسول الله ﷺ وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين، إحدهما مارية القبطية التي اختصها رسول الله لنفسه فولدت له إبراهيم، والثانية سيرين(75) وهبها لأحد أصحابه اختلف فيه، فقيل هو جهم بن قيس، وقيل هو حسان بن ثابت، وقيل بل وهبها رسول الله ﷺ لمحمد بن مسلمة، وفي قول آخر إنه أهداها لدحية ابن خليفة الكلبي.

وكتب المقوس إلى النبي ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك أما بعد. فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيا بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك.

---

(74) فتوح مصر وأخبارها 42.

(75) زاد المعاد 61/3.

غزوة خيبر

تقع خيبر(76) شمالي المدينة على طريقها إلى الشام على مسافة ثمانية برد أو مسيرة ثلاثة أيام (حوالي 150كيلو مترا)، ويقال إنها سميت على اسم خيبر بن قانية بن هلال بن مهلهل بن عبيل بن عوص بن ارم بن سام ابن نوح. وقد ذكر الأصطخري(77) أن خيبر حصن ذات نخيل كثيرة وزروع. وفي الواقع أنها كانت قلعة بها عدة حصون، فكان بها حصن النطاة، وحصن القموص وكان لأبي الحقيق وأولاده، وحصن ناعم، وحصن الشق، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة، وحصن السلالم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير، وحصن أبي، وحصن النزار. تلك الحصون التي أحصينا منها أحد عشر كانت لليهود الذين سكنوا خيبر. قلعة من أحد عشر حصنا على الأقل لليهود على التخوم الشمالية للمدينة لا شك كانت شيئا خطيرا من الناحية الحربية. لذلك انتهز الرسول ﷺ فرصة صلحه مع قريش في الحديبية لتطهير الشمال، وتأمين المدينة من تلك التخوم، ولذلك قرر غزو خيبر وإزالة النفوذ اليهودي منها. وقد ذهب الإمام مالك وابن حزم إلى أن غزوة خيبر كانت في سنة ست، ولكن جمهور الرواة يذهبون إلى أنها كانت في سنة سبع، في شهر صفر(78) (يونيه/يوليو) وكان آخر شئ يتوقعه يهود خيبر أن يغزوهم الرسول اتكالا على حصانة قلعتهم وعلى كثرة عددهم، ففي الروايات أنهم كانوا عشرة آلاف مقاتل.

---

(76) أمتاع الأسماع 309.

(77) المسالك والممالك25.

(78)الطبري 9/3.

وسار الرسول بالمسلمين وكانوا ألفا وأربعمائة ومعهم مائتا فرس حتى نزل بساحتهم ليلاً فلما أشرف على خيبر أمر أصحابه بالوقوف ثم قال لهم: "قولوا اللهم رب السماوات السبع وما أظلت، ورب الأرضين السبع وما أقلت، ورب الشياطين وما أضلت ورب الرياح وما ذرت، فإنَّا نسألك خير هذه القرية وأهلها وخير ما فيها. ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها". ثم قال "ادخلوا على بركة الله" .

فلما أصبح الصباح وفتح اليهود حصونهم وخرجوا إلى أعمالهم ومعهم أدوات الزراعة والحفر، فوجئوا بالمسلمين فصاحوا "محمد والخميس" (يعني الجيش) ورجعوا هاربين إلى حصونهم. وقال ﷺ: "الله أكبر خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين". ثم قاتل من يومه ذاك أهل حصن النطاة إلى الليل فلما أمسى رجع بالمسلمين إلى الرجيع، وهو واد قريب من خيبر من جهة الشام، وهو غير الرجيع الذي لهذيل بين مكة والطائف، حيث غدرت عضل والقارة بالمسلمين السبعة. وادي الرجيع هذا كان يقع بين خيبر وبين مساكن غطفان، وقد أراد الرسول بهذا أن يحول دون إمداد غطفان ليهود خيبر ومساندتهم لهم.

وكان اليهود يخرجون صفوفا كل يوم وهم يقولون "محمد يغزونا؟ هيهات هيهات" وكان شعار المسلمين "يا منصور أمت" وأمر النبي ﷺ بقطع نخلهم تيئيسا لهم، فلما قطع المسلمون أربعمائة منها، لعله تراءى له أن الله سيفتح خيبر للمسلمين وتكون لهم، فنادى بالنهي عن تقطيع النخل.

وجلس محمود بن مسلمة الأنصاري (شقيق محمد) تحت حصن ناعم يستظل بظله، فقد كان اليوم شديد الحرارة والفصل صيفاً وصادف شهر يونيه/يوليه. ومهما كان الدافع لذلك الجلوس فلا شك أنه كان خطأً كبيراً. كان هذا الحصن حصن مرحب اليهودي، فما أن رأى محمودا جالسا في مكانه ذاك حتى صعد إلى أعلا الحصن وألقى عليه رحى فهشمت خوذته ونزعت جلدة جبينه فسقطت على وجهه وخرجت عينه من محجرها، ولا ريب أن إصابته كانت جسيمة فأعاد النبي الجلدة إلى مكانها وربطت بثوب، وعاد إلى الرجيع خشية على أصحابه من أن يقوم اليهود بهجوم ليلي، فكان مقامه بالرجيع سبعة أيام يغدو كل يوم لقتال حصن النطاة، فإذا أمسى عاد إلى معسكره. وكان يستخلف على المعسكر عثمان بن عفان وكانوا يحملون كل من جرح إلى المعسكر، فجرح في أول يوم خمسون من المسلمين.

ودخل يهودي من أهل حصن النطاة ليلا على رسول الله ﷺ فدله على نقطة ضعف في الحصن مقابل الأمان، وتم للمسلمين اقتحام الحصن فلم يكن به إلا مقاتلين ولا أحد من الذرية. فلما تم للمسلمين فتح حصن الشق وجدوا النساء والأطفال به،

فأعاد النبي إلى اليهودي زوجته. وغنم المسلمون من النطاة منجنيقا فنصبوه على حصن النزار حتى فتحوه، ثم تحولوا إلى حصن ناعم ورموه بالمنجنيق واليهود يدافعون عن حصنهم باستماته. فقال رسول اللهﷺ: "لأعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، ليس بفرأر، أبشر يا محمد بن مسلمة، غداً إنشاء الله تعالى يقتل قاتل أخيك وتولى عادية يهود". فلما أصبح دفع اللواء إلى علي بن أبي طالب ودعا له بالنصر، فهزم عليِّ اليهود وخرج مرحب- قاتل محمود عليه مغفر معصفر يقاتل كالفحل يدعو إلى المبارزة وهو يقول(79):

قد علمت خيبر أني مرحب	**شاكي السلاح بطل مجرب**
أطعن أحيانا وأحياناً أضرب	**إذا الليوث أقبلت تحرب**
كان حماى للحمى لا يقرب	

ثم قال هل من مبارز؟

فقال رسول الله ﷺ : من لهذا؟

فقام محمد بن مسلمة(80) وقال: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر قتلوا أخي بالأمس.

("[79]) الطبري 10/3 عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق.
السـيرة النبوية لابن هشـام 333/3 عن ابن إسحاق عن عبد الله بن سهل عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

([80]) زاد المعاد 134/2.

قال: فقم إليه، اللهم أعنه عليه.

فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة قديمة من شجر العشر، وهو شجر أملس ضعيف العود. فكان كل واحد منهما يلوذ بها من صاحبه، فكلما استتر بها أحدهما اقتطع الآخر ما دونه منها حتى صارا وجهها لوجه فتجاولا ساعة، ثم حمل مرحب على محمد فضربه فاتقاه محمد بدرقته فغرس سيفه فيها، وعضت به فأمسكته فضربه محمد بن مسلمة، فقطع رجليه فسقط، فمر به على ابن أبي طالب فضرب عنقه، فأعطى رسول الله ﷺ ما كان عليه لمحمد بن مسلمة، فأخذ سيفه ورمحه ومغفره وبيضته، وكان عند آل محمد بن مسلمة بعد ذلك سيفه فيه كتابة لا يدري ما هي حتى قرأها يهودي(81) فإذا هي:

هذا سيف مرحب	من يذقه يعطب

ولما قتل مرحب بعث رسول الله ﷺ إلى محمود بن مسلمة يبشره بأن محمد بن مسلمة قتل مرحبا، فسر بذلك ثم مات من يومه بعد ثلاثة أيام من سقوط الرحى عليه. وجثم رسول الله ﷺ على الحصون وألح عليها حصنا حصنا حتى فتحها جميعا بعد قتال مرير مستميت.

---

(81) زاد المعاد 135/2.

وكان كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق من أسرى خيبر فصالح النبيﷺ فسأله النبي عن الأموال فقال: "يا أبا القاسم انفقناه في حربنا فلم يبق منه شئ" وأكد الإيمان. فقال رسول الله: "برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كان عندكم" قال: نعم، قال النبي: "وكل ما أخذت من أموالكم وأصبت من دمائكم فهو حل لي ولا ذمة لكم؟" قال: نعم. فأشهد النبي عليه عددا من المسلمين ومن اليهود ثم دله سعبة بن سلام بن أبي الحقيق على خرابة فحفرها المسلمون فإذا بها كنز من حلي في جلد جمل. فدفع النبي كنانة بن أبي الحقيق إلى محمد بن مسلمة(82) فقتله. ومما هو جدير بأن يذكر في هذه الغزوة أنه كان بين غنائم المسلمين في خيبر نسخا من التوراة، فأعادها النبي ﷺ إلى اليهود. واستشهد بهذه الغزوة أربعة من المهاجرين وأحد عشر من الأنصار، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون.

(82) السيرة النبوية لابن هشام 337/3.

عمرة القضاء

وقبل أن ينصرم العام السابع من الهجرة كانت عمرة القضاء. فقد رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة فأقام بها من شهر ربيع الأول إلى شهر شوال يبعث السرايا وهو مقيم، ثم خرج في شهر ذي القعدة إلى مكة معتمراً عمرة القضاء مكان عمرة الحديبية التي صدوه عنها من العام السابق، وخرج معه المسلمون الذين كانوا معه في عمرته تلك، فخرجت قريش عن مكة طبقاً لما اتفقوا عليه منذ عام. واصطفوا عند دار الندوة ينظرون إلى المسلمين، وأقام النبي والمسلمون بمكة ثلاثا ثم رجع إلى المدينة في ذي الحجة.

في هذه العمرة حمل رسول الله(83) ﷺ السلاح والبيض (الخوذات) والرماح وقاد ستمائة فرس، وجعل بشير بن سعد مسئولا عن السلاح ومحمد بن مسلمة مسئولا عن الخيل، وبلغ ذلك قريشا فراعهم، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ مكرز بن حفص فلقيه بمر الظهران فقال له النبي: "ما عرفت صغيرا ولا كبيراً إلا بالوفاء، وما أريد إدخال السلاح عليهم، ولكن يكون قريباً إليّ"

[83]) الطبري 26/3 عن الوافدي.

فتح مكة

وفي العام الثامن من الهجرة لعشر ليال بقين من شهر رمضان، كان حدث من أهم ما كان في تاريخ الإسلام والمسلمين ونعني به فتح مكة. كان جيش الفتح عشرة آلاف وكانت وحداته مكونة من قبائل المسلمين. وكان رسول الله ﷺ في كتيبته من المهاجرين والأنصار خاصة، كانوا في دروع الحديد لا يرى منهم إلا عيونهم. رآهم أبو سفيان يمرون أمامه فما ملك نفسه -وهو مازال كافرا- أن قال للعباس(84) بن عبد المطلب: "يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما" قال له العباس: "ويحك إنها النبوة" فقال: نعم إذن. كان محمد بن مسلمة في هذه الكتيبة وشهد مع النبي ﷺ فتح مكة.

وفي هذا الفتح صلى رسول الله ﷺ ثماني ركعات ضحى، ثم لبس السلاح ومغفراً من حديد وقد صف له الناس فركب ناقته القصواء وأبو بكر الصديق ﷺ إلى جانبه يحادثه وعبد الله بن أم مكتوم بين يديه من بين الصفا والمروة وهو يقول:

---

(84)الطبري 54/3.

يا حبذا مكة من وادي	**	أرض بها أهلي وعوادي
أرض بها أمشى بلا هادي	**	أرض بها ترسخ أوتادي

حتى انتهى إلى الكعبة، فتقدم على رحالته فاستلم الركن بمحجنه وكبر، فكبر المسلمون لتكبيره حتى ارتجت مكة تكبيرا، فأشار إليهم أن يسكنوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون.

ثم طاف ومحمد بن مسلمة(85) آخذ بزمام ناقة النبي ﷺ وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما مرصصة بالرصاص وهبل أعظمها، فجعل الرسول كلما مر بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا" فيحطم الصنم ويلقى على وجهه. وشهد فتح مكة مع محمد بن مسلمة بنوه(86) عبد الرحمن وعبد الله وعمرو وسعد وجعفر.

([85])أمتاع الأسماع 383.

([86])أسد الغابة 761، الأصابة 1168.

هوازن والطائف

وخرج رسول الله ﷺ من مكة في اثنى عشر ألفا، هم عشرة آلاف جيش الفتح وقد أنضم إليه ألفا من أهل مكة، ومضى بهم يريد هوازن وسبقت هوازن إلى وادي حنين فكمنت في شعابه وجوانبه ومضايقه والمسلمون لا يشعرون، فلما هبط الرسول والمسلمون الوادي انقضت عليهم هوازن فتراجع المسلمون من أثر المفاجأة، وثبت رسول الله ﷺ وهو ينادي المسلمين ليعودوا إليه ويثبتوا معه، فكروا وحمى الوطيس حتى انهزمت هوازن فتراجعت إلى الطائف فانحازت إلى ثقيف، وغنم المسلمون من هوازن سبيا وغنائم عظيمة كثيرة.

وتبع رسول الله ﷺ هوازن فحاصر الطائف بضعا وعشرين ليلة وقيل: "سبع عشرة ليلة" ورماهم بالمنجنيق، ثم لم يتيسر للمسلمين فتحها فرجعوا عنها بعد أن استشهد منهم اثنا عشر رجلا، سبعة من قريش وأربعة(87) من الأنصار ورجل من بني ليث أصابتهم ثقيف بسهامها، ورجع المسلمون إلى الجعرانة في الطريق إلى مكة فنزلوها.

وقام رسول الله ﷺ بتقسيم الغنائم، فأعطى المؤلفة قلوبهم من أهل مكة من قريش، ومن الأعراب الذين أسلموا حديثاً ليتألف قلوبهم فأجزل لهم العطاء. أعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير،

---

(87) السيرة النبوية لابن هشام 487/4.

وكذلك معاوية بن أبي سفيان، وحكيم بن حزام، والحارث بن الحارث بن كلدة، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، والعلاء بن جارية الثقفي، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، ومالك بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومالك بن عوف النصري، وصفوان بن أمية.. كلا أعطاه مائة بعير وأعطى آخرين أقل من ذلك وأغدق في العطاء. ولم يكن للأنصار من تلك العطايا شئ.

نصيب الأنصار

مر بنا دور الأنصار في نصرة الإسلام ومساهمتهم في إعلاء كلمته حتى فتح مكة مهبط الوحي ومحل البيت العتيق. والآن وقد ذهبت المغارم وجاءت المغانم يرى الأنصار رسول الله ﷺ يعطي العطايا في قريش وفي قبائل العرب عطاء من لا يخشى فاقة! ولم يعط الأنصار شيئاً!! لم يعطهم وهم الذين آووه ونصروه وبذلوا أموالهم في سبيل الدعوة فوجدوا في أنفسهم، وتكلموا في ذلك وكثر كلامهم وزاد حتى قال قائل منهم: "لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه" . فدخل عليه(88) سعد بن عبادة وقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيئ الذي أصبت قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شئ.

([88]) ابن هشام 498/4.

قال: "فأين أنت من ذلك يا سعد؟" وكم كان سعد جميلاً في صراحته وصدقه، قال: يا رسول الله: ما أنا إلا من قومي.

قال: فأجمع لي قومك في هذه الحظيرة.

فخرج سعد فجمع الأنصار فيها-وابن مسلمة بينهم- وجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم. ثم أتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: "يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها على في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله. وأعداء فألف بين قلوبكم؟ "

قالوا: بلى الله ورسوله أمنّ وأفضل.

قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟

قالوا: بما ذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.

قال ﷺ أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقْتم، أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك. وطريداً فآويناك. وعائلا فآسيناك! أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا. ووكلتم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده. لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

هنا مربط الفرس. فلم يكن الإسلام ثورة بشرية ولا حركة استعلائية تستهدف المغانم والسلطة ولكنه رسالة من الله إلى خلقه. رسالة الهداية والربانية والتسامي بالنفس الإنسانية والإيمان باليوم الآخر. لو كان ثورة قبلية لاستحق الأنصار والمهاجرون تلك المغانم ولأخذوها كما يأخذ كل أصحاب حركة نصيبهم من مغانمها بقدر ما بذلوا من مغارمها، ولكن ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[القصص: 83] .

استبان الأمر للأنصار وذكروا ما كانوا قد نسوا فبكوا حتى ابتلت لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظا.

ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

وفي عطاء المؤلفة قلوبهم يقول الأستاذ الغزالي(89): "إن في الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم. فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة فكذلك هذه الأصناف من البشر. تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له.

(89) فقه السيرة 298.

وهكذا تم الفتح للمسلمين وأقبلت المغانم من بعد المغارم. فذهب بها الذين آذوا الله ورسوله والمسلمين. ذهبوا بها تألفا لقلوبهم ليسلموا. وذهب الأنصار برسول الله ﷺ ! فأي الفرقين ذهب بالفوز والغنم؟!

إن مثل هذا ما كان ليحدث إلا والقوم مؤمنون حقا. وما كان ليحدث إلا والدين دين حق.

اعتمر رسول الله ﷺ بعد ذلك في ذي القعدة 8هـ ثم رجع إلى المدينة بمن معه، فأقام بها إلى شهر(90) رجب 9هـ ثم أمر بالتجهز لغزو الروم وهي غزوة مؤتة.

تبوك

لم ينل الأصحاب بالمدينة من العطاء ما نال الناس من غيرهم ورجعوا إلى مدينتهم برسول الله ﷺ، فكان الزمان زمان عسرة لم يفرجها الفتح، وجدب من البلاد وشدة من الحر وقد صادف ذلك شهر أكتوبر، وطابت الثمار فأحب الناس المقام في ثمارهم وظلالهم وكرهوا الخروج. ولكن النبي أعلن أن وجهته تبوك وأنه يستهدف غزو الروم فشق ذلك على الناس وذهبوا يلتمسون المعاذير في حين برزت من وسط ذلك مُثُلّ يقتدى بها. وأقام النبي معسكره على ثنية الوداع بشمال المدينة.

---

(90) ابن هشام 516.

وسار الجيش شمالا حتى نزل تبوك فأتى بحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية. ثم بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك ملك دومة الجندل فأسره خالد وجاء به النبي ﷺ فصالحه على الجزية وخلى سبيله فعاد إلى قريته. وأقام النبي بتبوك بضع عشرة ليلة ثم رجع إلى المدينة.

وما دمنا بصدد سيرة محمد بن مسلمة فإنه يهمنا أن نعرف مكانه من هذه الغزوة فإن المصادر تثبت أن النبي ﷺ قد استعمله(91) على المدينة، كما تذكر أن محمد بن مسلمة شهد بدراً وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله ما عدا تبوك.

بعد تبوك لم نعثر لمحمد بن مسلمة على ذكر خاص في حياة النبي ﷺ وكأنه بقى بالمدينة واحدا من الأنصار. يشهد وفود القبائل تفد إلى الرسول طوال العام التاسع والعام العاشر يعلنون إسلامهم ويدخلون في دين الله أفواجا. فلما كان العام الحادي عشر انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتفاقمت الردة في جزيرة العرب.

---

(91) ابن هشام 519 ويقول بعضهم بل استخلف سباع بن عرفطه. أمتاع الأسماع 499.

في حروب الردة

توفي رسول الله ﷺ في ربيع الأول 11هـ وولي أبو بكر الخلافة بعد ما كان بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة. ولا تسعفنا المصادر بما يلقي الضوء على موقف ابن مسلمة كواحد من الأنصار ممن كان في السقيفة.

وكان رسول الله قد أمر قبل وفاته ببعث أسامة بن زيد على جيش إلى تخوم الشام، فما أن ولي أبو بكر أمر المسلمين حتى أمضى ذلك الجيش إلى مقصده في آخر ربيع الأول 11هـ وبعد أن خلت المدينة من جيشها جاءت وفود العرب من شتى القبائل تعلن ردتها، منها من عاد كافراً بعد الإسلام، ومنها من جاء يساوم على عدم الخضوع لسلطان المسلمين في المدينة وعدم أداء الزكاة إليه. وأشتد الأمر على المسلمين حتى ذهب أكثرهم إلى مهادنة تلك الحركات المتمردة والتعايش معها. غير أن أبا بكر لم يقبل إلا أن تعود كافة قبائل العرب إلى طاعة الخليفة في المدينة وأن يؤدوا إليه ما كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ .

هذا وجيش أسامة في بعثه نحو تخوم الشام. فلما رجع جيش أسامة بن زيد خرج أبو بكر إلى ذي قصة -على بريد من المدينة- ومعه المهاجرون والأنصار، وخالد بن الوليد يحمل اللواء. وكان أبو بكر في تحركه هذا يريد أن يتلاحق به المسلمون من خلفه، فوكل بالناس محمد بن مسلمة يستحثهم. وجاء خارجة بن حصن الفزاري في خيل قومه يريد الإغارة على المدينة، فلقيه أبو بكر بمن معه فانهزم خارجة وانكشف في فلول المرتدين وأقام أبو بكر والمسلمون حتى تكاملت منهم حشود كبيرة كان لابن مسلمة جهده في حشدها فراح أبو بكر يوجهها إلى وجهاتها.

خالد يغزو العراق

فرغ المسلمون من قمع الردة في شبه الجزيرة قبل انصرام العام الحادي عشر من هجرة الرسول ﷺ. ومع الخيوط الأولى لفجر العام الثاني عشر كانت جيوش المسلمين تنساب على رمال الصحراء انسياب الحيات لفتح العراق والشام. كان خالد بن الوليد يقود ثمانية عشر ألفا، فاكتسح بهم في أربعين يوماً جنوب العراق غربي نهر الفرات من الأُبُلَّة (على شط العرب قريباً من موقع البصرة) إلى الحيرة على الفرات وعلى تخوم الصحراء، وقد تخلل ذلك خمس معارك قبل أن يصل إلى الحيرة.

كان أهل الحيرة من العرب الذين اعتنقوا النصرانية وكانوا موالين للفرس وقد تصدوا للمسلمين. ولكن انتصارات خالد في معاركه السابقة قبل بلوغه الحيرة أجبرت الفرس المجوس على الانسحاب بجيوشهم من الحيرة إلى شرقي الفرات وتركوا أهل الحيرة لمصيرهم. وكان بالحيرة أربعة حصون اعتصم بها هؤلاء وراحوا يرمون المسلمين من خلف أسوارهم، فحاصرهم خالد حتى أجبرهم على النزول على حكمه.

وفي فتح الحيرة تعرض قصة رجل(92) من المسلمين تختلف المصادر حول اسمه، فبعضها يذكر أنه خُزَيْم، وبعضها يذكره "خُرَيْم" وغيرهما يقول شُوَيْل، ولكن لا خلاف في أنه كان طائيا (من بني طيئ) وقد كان لمحمد بن مسلمة ذكر في هذه القصة فقد أخرج البخاري عن خريم ابن أوس بن حارثة بن لام بن عمرو بن طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طئ الطائي (وكذلك أخرج بن منده) أنه قال: اقتتلنا يوم الحيرة فكان أول من تلقانا الشيماء بنت نفيلة الأزدية فتعلقت بها فقلت هذه وهبها لي رسول الله ﷺ ! فدعاني خالد عليها بالبينة فأتيته بها وهي محمد بن مسلمة ومحمد بن بشير(93) الأنصاريان. فسلمها إلي.

---

(92) الاستيعاب 427/1، الأصابة 2245-7762، أسد الغابة 728-1438، البخاري الطيراني ابن منده.

(93) وفي رواية أخرى أنهما محمد بن مسلمة وبشير بن سعد وليس محمد بن بشير الأنصاريان.

وكما رواها البخاري وابن مندة فقد رواها الطبراني أيضاً قال: قال حزيم سمعت رسول الله ﷺ يقول: "هذه الحيرة البيضاء، وقد رفعت لي وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود". (وذكر حديثاً طويلاً). فقلت يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما هي فهي لي؟ قال هي لك. قال فشهدت الحيرة مع خالد بن الوليد فكان أول من تلقانا الشيماء فتعلقت بها فسلمها لي خالد. وقال أبو جميل الطائي(94) لما أعطى شويل كرامة بنت عبد المسيح قلت لعدي بن حاتم: ألا تعجب من مسألة شويل كرامة بنت عبد المسيح على ضعفه؟ قال: كان يهرف بها دهره. وذلك أني لما سمعت رسول الله ﷺ يذكر ما رفع له من البلدان فذكر الحيرة فيما رفع له. وكأن شُرَف قصورها أضراس الكلاب عرفت أن أريها وإنها ستفتح فلقنته مسألتها.

وقد اشتد تسليم بنت عبد المسيح كبير عرب الحيرة إلى شويل على أهل بيتها وأهل قريتها وأعظموا خطر ما وقعت فيه فقالت لهم:

- لا تخطروه ولكن اصبروا. ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة! فإنما هذا رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم. فأسلموها إلى خالد فأسلمها خالد إليه واستثناها خالد من صلحهم(95).

فقالت لخزيم: ما رأيك إلى عجوز كما ترى؟ ... فادني.

---

(94) الطبري 365/3 عن عبيد الله بن سعد الزهري عن عمه عن سيف عن جميل الطائي عن أبيه.

(95) فتوح البلدان ص 298.

قال: لا، إلا على حكمي.

قالت: فلك حكم مرسلا (كائنا ما كان).

قال: لست لأم شويل أن نقصتك من ألف درهم(96).

فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها(97)، ورجعت إلى أهلها، وتسامع الناس بذلك فعنفوه وقالوا له ويحك، لقد أرخصتها، كان أهلها كانوا يدفعون إليك أضعاف ما سألت بها. فقال ما كنت أرى أن عددا يزيد على ألف! ثم خاصمهم وقال إن نيته كانت نهاية العدد، فقال له خالد أردت أمراً وأراد الله غيره.

واضح من تلك الروايات أن مجلسا جمع رسول الله ﷺ وعدي ابن حاتم الطائي وخزيم بن أوس الطائي ومحمد بن مسلمة ومحمد بن بشير بن سعد (أو بشير بن سعد) الأنصاريان، تنبأ فيه النبي ﷺ بفتح الحيرة وكان خزيم معجباً بنفيلة (أو كرامة على رواية أخرى) بنت بقيلة بن عبد المسيح سيد نصارى الحيرة فأوعز إليه عدي بن حاتم أن يطلبها من رسول الله ﷺ إن فتحت الحيرة عنوة. ثم تحققت النبوة. متى كان ذلك المجلس وما مناسبته وملابساته؟ ذلك ما لم تذكره القصة، ولكن بالرجوع إلى السيرة النبوية وإلى ترجمة خزيم نستطيع أن نستكمل ما نقص من الصورة.

---

(96) كان قيمة الدرهم حوالي 86 مليما مصريا.

(97) الطبري 366/3 عن عبيد الله عن عمه عن سيف عن عمرو والمجالد عن السعبي- والسري عن شعيب عن سيف عن المجالد عن السعبي.

فقد كان خزيم يكنى أبا لجاء وقد قدم على النبي ﷺ مع أخيه جرير بن أوس وهو منصرف من تبوك في شهر رمضان 9هـ فأسلم وروى شعر العباس بن عبد المطلب الذي مدح به النبي ﷺ. في نحو ذلك الوقت أو بعده بقليل في ذات العام التاسع من الهجرة قدم عدى بن حاتم الطائي سيد بني طيئ على النبي ﷺ وأسلم عنده في تلك المناسبة جرى حديث بينهما قال النبي ﷺ أسلم تسلم. قد أظن أنه إنما يمنعك غضاضة تراها ممن حولي وأنك ترى الناس علينا إلبا واحدا. هل أتيت الحيرة؟

يقول عدي: قلت لم آتها وقد علمت مكانها.

قال يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز.

فقلت كسرى بن هرمز؟!

قال نعم، وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته.

يقول عدي فيما أخرجه البخاري(98) من وجه آخر: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل.

فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟

---

(98) البخاري شرح الكرماني 178/2، الأصابة 2431-5477، الاستيعاب 458/2-3/1440.

قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها.

قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله.

فقلت- فيما بيني وبين نفسي- فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد.

في هاتين الوفادتين لخزيم ولعدي بن حاتم على رسول الله ﷺ اللتين لم يذكر رواة السيرة وفادة لهما غيرهما نذهب إلى أن قصة التنبؤ بفتح الحيرة ووعد النبي لخزيم بالشيماء قد حدث، وأن محمد بن مسلمة قد شهدها فشهد بها لخالد بن الوليد في فتح الحيرة. ولكن هل تفيد القصة وجود محمد ابن مسلمة مع خالد في جيش فتح العراق؟ من المفيد ونحن نفتش عن سيرة محمد ابن مسلمة أن نتبين ما إذا كان قد خرج غازيا مع خالد بن الوليد في فتوح العراق، وربما كان ذلك. ولكننا لا نستطيع أن نقطع به حيث يمكن الاستشهاد به والرجوع إليه ولو لم يكن معهم بالجيش، ولا سيما ولم يرد عنه أي ذكر آخر يدعم وجوده مع خالد بن الوليد في فتح العراق، ومن المحتمل أنه كان بالمدينة إلى جوار الخليفة. وكذلك الوضع بالنسبة للشاهد الثاني (محمد ابن بشير أو بشير بن سعد) إذ يتعذر القطع بوجوده أو عدم وجوده في جيش خالد لفتح العراق.

في عهد عمر
في فتح مصر

كان فتح مصر على يدي عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب. قال سيف(99) سنة ستة عشرة وقال ابن إسحق سنة عشرين. وقد سار عمرو بن العاص إلى مصر من الشام في أربعة آلاف(100) مقاتل من الصحابة والتابعين، وقيل بل كانوا ثلاثة آلاف وخمسمائة، واشتبك عمرو بالروم في الفرما شهراً في قتال شديد حتى هزمهم ثم سار لا يلقى إلا مقاومة طفيفة حتى بلبيس، فقاتله الروم بها نحواً من شهر حتى هزمهم، فسار إلى أم دنين فقاتلوه بها قتالا شديداً، وأبطأ عليه الفتح فاستمد عمر فأمده بأربعة آلاف، فحصرهم عمرو في حصن بابليون. وكان عمر قد كتب(101) إليه: "إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف، الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. اعلم أن معك اثنى عشر ألفا ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة" .

([99]) الطبري 102/4. وقد حققنا ذلك التاريخ وغيره في كتابنا "الفتح الإســـلامي لمصر"، وانتهينا إلى أنه بدأ في شهر ذي الحجة 19هـــــ وتم فتح بابليون في ذي الحجة 20هــ ثم فتح الاسكندرية في 19 رمضان 21هــ، 19 أغسطس 642م.

([100]) فتوح مصر وأخبارها 47 عن عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن جعفر وعباس القتباني وغيرهما يزيد بعضهم على بعض وعن أبي الأسود النضر بن عبد الجبار عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب.

([101]) فتوح مصر وأخبارها 50.

فلما أبطأ الفتح على عمرو بن العاص قال الزبير(102) إني أهب نفسي لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمّام ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً.

وصعد الحصن مع الزبير(103) محمد بن مسلمة، ومالك بن أبي سلسة السلامي ورجال من بني حرام، فما شعر الروم إلا والزبير ومن معه على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس(104) على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر. فلما اقتحم الزبير ومن معه وكبر وكبروا أجاب تكبيرهم المسلمون من خارج الحصن فظن أهل الحصن أن المسلمين جميعاً قد اقتحموا حصنهم فهربوا، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحمه المسلمون بعد أن أقاموا عليه سبعة أشهر. كان محمد بن مسلمة قد بلغ التاسعة والأربعين أو الثالثة والخمسين من عمره حين تسلق حصن بابليون!

---

(102) فتوح مصر وأخبارها 52 عن عثمان بن صالح.

(103) فتوح مصر وأخبارها 52 عن سعيد بن عفيرة عن عبد الملك بن مسلمة عن الليث بن سعد.

(104) فتوح مصر وأخبارها 52.

هنا يظهر لنا محمد بن مسلمة فجأة في دور بطولي جديد. متى جاء ابن مسلمة إلى مصر؟ هل أتى في جيش عمرو من الشام؟. أو أتى مع الزبير بن العوام في المدد الذي بعث به عمر بن الخطاب؟ لا تذكر لنا المصادر شيئاً عن ذلك. ولكننا نذهب إلى أنه جاء مع الزبير ونكاد نجزم به. ذلك أنه لو كان جاء من الشام لوجدنا له ذكرا في فتوح الشام وأخبارها، فما كان ابن مسلمة ليشهد فتوح الشام ثم يخمد ذكره فيها، فضلا عن أنه من المعروف عنه أنه لزم المدينة وسكنها فلم ينزل غيرها. هذا ويذكر الرواة أنه دخل مصر(105) ستة من أهل بدر، الزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، ومحمد بن مسلمة. ثم دخلها أيضاً عمار بن ياسر، ولكن بعد الفتح زمن عثمان.

وكما لم تذكر لنا المصادر متى جاء محمد بن مسلمة إلى مصر كذلك لا تذكر كيف ومتى عاد، ولكنه بكل تأكيد قد عاد إلى المدينة بعد فتح بابليون. فسوف يجئ إلى مصر مرة أخرى مبعوثاً من عمر في مهمة من نوع آخر.

---

(105)فتوح مصر وأخبارها 71.

قضية سعد الأولى:

بعد أن فتح المسلمون العراق، وسقطت مدائن كسرى في أيديهم اتخذوها قاعدة لهم وأقاموا في مساكنها، غير أنها لم تناسبهم فتركوها وأقاموا الكوفة، بنوا ديارهم أول الأمر من البوص ولم يلبث أن شب حريق فالتهم الكوفة وعاد المسلمون إلى مضارب خيامهم. ثم أعادوا بناءها من اللبن وقد حظر عليهم أن يزيد أحدهم بيته على ثلاث حجرات أو أن يتطاول في البنيان. ونقلوا أبواب دورهم التي كانت بالمدائن إلى الكوفة فجعلوها على بيوتهم الجديدة. ومثلهم في ذلك بنى قائدهم سعد بن أبي وقاص دارا بناه له دهقان من أهل همذان يدعى روزبة بن بزر جمهر وأنشأه من آجر قصر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة وأقام على الدار خصا من البوص وجعل لها بابا من الخشب أغلق به القصر وكانت الأسواق أمامه فكانت ضوضاء الناس تمنع سعداً الحديث. لعل بيت سعد كان أكبر من سواه وأوسع وربما كان بذلك أفخم ولا يسع أحداً إلا أن يرى هذا أمراً طبيعياً، فإنه مكان لاجتماعاته ولتدبير شئون مسئوليته ولإدارة شئون البلاد منه. ولكن بعض أهل الكوفة سعى إلى المدينة يشكون سعداً إلى عمر.

"لقد ابتنى دارا يقال لها قصر سعد. واحتجب فيها وجعل لها بابا، وقال سكن عني الصويت" .

لقد كان عمر بن الخطاب شديد الحساسية لأي شئ من شأنه أن يتميز به أحد عن سواه ولا سيما إذا كان هذا التميز لأحد من أهل بيته أو أقربائه أو عماله وولاته، فأرسل محمد(106) بن مسلمة وقال له: "اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودتك على بدئك"! وأرسل مع محمد إلى سعد: "بلغني أنك بنيت قصرا اتخذته حصنا ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس بابا فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال (الفساد). أنزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه، ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت" .

وهكذا لم يكن للقائد العام في أكبر قاعدة حربية للمسلمين من الحقوق أكثر مما لأي جندي فيها، ولم يكن من حقه أن يكون له "قصر الحاكم" ليستجم فيه أو حتى ليزاول عمله بقدر من الهدوء، أو كما قال من شكى ليسكن عنه الصوت، ولم تكن القيادة العامة رتبة يتعالى بها صاحبها ومن باب أولى القيادات الأصغر.

خرج محمد(107) من المدينة حتى أتى الكوفة، فاشترى حطباً، ثم أتى بيت سعد (أو قصر سعد) فأحاطه بالباب ثم أحرقه. لم يكن سعد بالبيت حينذاك وأتاه الخبر فقال: "هذا رسول أرسل لهذا من الشأن" وبعث لينظر من هو ويبحث عنه. فعلم أنه محمد بن مسلمة. فأرسل إليه رسولا ليدخل فأبى. فخرج إليه سعد وأراده على الدخول والنزول فأصر على الرفض.

---

(106) الطبري 47/4 عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحه والمهلب وعمرو وسعيد. فتوح البلدان 341 عن العباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف عن محمد بن إسحق.

(107) الطبري 47/4 س ش س عن محمد وطلحة والملهب وعمرو وسعيد.

فعرض عليه نفقة فرفضها أيضاً، وسلمه كتاب عمر. فقرأه سعد ثم حلف لابن مسلمة ما قال الذي ذكره الشاكون. ونفذ محمد أمر عمر فرجع من فوره، ونفذ زاده وقد اقترب من المدينة حتى أكل لحاء الشجر ثم أتى عمر وأخبره الخبر كله. قال عمر "فهلا قبلت من سعد" !

قال: "لو أردت ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه" .

فقال عمر: "إن أكمل الرجل رأيا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل" .

وأخبر محمد عمرا بيمين سعد وقوله فصّدق سعدا وقال: هو أصدق ممن روى عليه ومن أبلغني. كان ذلك في العام السابع عشر الهجري.

وقد ذكر محمد بن إسحق هذه الواقعة ذكراً مختصراً فقال: "اتخذ سعد ابن أبي وقاص بابا مبوبا من خشب، وخص على قصره خصاً من قصب. فبعث عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة الأنصاري حتى أحرق الباب والخص، وأقام سعداً في مساجد الكوفة فلم يقل فيه إلا خير" .

وذكرها بن القيم(108) فقال إن عمر دعا محمد بن مسلمة فقال: اذهب إلى سعد بالكوفة فحرق عليه قصره ولا تحدثن حدثا حتى تأتيني.

---

(108) الطرق الحكيمة 16.

فذهب محمد إلى الكوفة فاشترى من نبطي حزمة من حطب، وشرط عليه حملها إلى قصر سعد فلما وصل إليه ألقى الحزمة فيه، وأضرم فيها النار.فخرج سعد فقال ما هذا؟

قال: عزمة أمير المؤمنين.

فتركه حتى احترق. ثم انصرف إلى المدينة. فعرض عليه سعد نفقة فأبى أن يقبلها. فلما قدم على عمر قال: هلا قبلت من سعد نفقته؟

فقال إنك قلت لا تحدثن حدثا حتى تأتيني.

قضية(109) سعد الثانية

ومضى عام أو يزيد ثم كانت القضية الثانية لسعد عام 18هـ غير واضح لنا تماماً ما الذي حدث. ولكن نفرا من أهل الكوفة يتزعمهم الجراح ابن سنان الأسدي ذهبوا إلى عمر في المدينة يشكون سعد بن أبي وقاص بأنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية ولا يغزو في السرية وأن الصيد يلهيه وأنه لا يحسن الصلاة! لقد أجمعت المصادر على براءة سعد وأن الشكوى كانت كيدية وهذا ما لا يحتمل شكاً، أما أسبابها الحقيقية فهو ما لا تبين عنه المصادر ولم يذكره الرواة.

---

(109) الطبري 121/4. فتوح البلـدان 341، عن العبـاس بن الوليد النرسـي وإبراهيم العلاف البصري عن ابن عوانه عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة.

لقد لابست قيادة سعد لجيش المسلمين لفتح العراق أمور ربما هي التي أدت ببعضهم إلى الشكوى منه، من ذلك أن سعداً كان يمنح بعض العاملين مكافآت ومنحاً على أساس ما معهم من القرآن الكريم بمقدار ما يحفظون منه، وكان ذلك بأمر من عمر، ولكن آثار هذا أبطال المعارك وصناديد القتال ممن يقل محصولهم من حفظ القرآن واستظهاره وشكوا إلى عمر توزيع أنفال معركة القادسية، فعاد يأمر سعدا أن يعطيهم على بلائهم، ربما كان ذلك هو سبب شكواهم "لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية" .

وكان لسعد أسلوبه في قيادة معاركه. كان غير متسرع ولا متعجل وإنما كان يؤثر التمهل حتى يرى ما عند عدوه على بصيرة وثبات وهدوء. لذلك لم يكن من القادة الذين تميزوا بأساليب الحرب الخاطفة، وقد اعتاد المسلمون الذين يقودهم على تلك الأساليب واستهوتهم حين حاربوا تحت قيادة خالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة قبل أن يقودهم سعد. وكان من أثر أسلوب سعد أنه لم يكن يظهر معهم على صهوة جواده في مقدمة القوات، وإنما كما رأينا في كبرى معاركه بالقادسية كان يشرف على سير المعركة من سطح قصر كان قائما هناك، ولو أن ذلك بسبب ما أصابه من مرض. ربما كان ذلك هو السبب في شكواهم بأنه "لا يغزو في السرية". وكان سعد صحابياً جليلاً من أقدم الناس إسلاما، وكان في جيشه كثير من الأعراب البدو، ويحتمل أن صلاته كانت أطول وأكثر أناة مما اعتادوا. ربما كان ذلك هو الذي دعاهم إلى الشكوى بأنه "لا يحسن الصلاة" .

حدث ذلك والفرس يحشدون حشودهم التي بلغت مائه وخمسين ألفا في نهاوند بهدف القيام بهجوم مضاد يطردون به المسلمين مما غزوا من أرض المجوس. قال عمر لوفد الشكوى "إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد" وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم!.

وجاء عمر بن معدي كرب من العراق فسأله عمر عن سعد فقال: "متواضع في خبائه عربي في نمرته (كسائه) أسد في تاموره (عرينه) يعدل في القضية ويقسم بالسوية ويبعد في السرية، يعطف علينا عطف الأم البرة، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة (النملة الصغيرة)"

وقدِمَ جرير بن عبد الله البجلي فسأله عمر "كيف تركت سعدا في ولايته؟" قال جرير: "أكرم الناس مقدرة وأحسنهم معذرة وأقلهم قسوة، وهو لهم كالأم البرة يجمع لهم كما تجمع الذرة، مع أنه ميمون الأثر مرزوق الظفر، أشد الناس عند البأس وأحب قريش إلى الناس" .

وبعث عمر محمد بن مسلمة إلى الكوفة للتحقيق في الشكوى. لقد خصص عمر محمد بن مسلمة لمعضلات الأمور، وللتحقيق في الشكاوى التي تأتيه في حق ولاته على الولايات المفتوحة. وذهب محمد إلى الكوفة وهي تموج بالمسلمين فهم في اجتماع وحركة يستعدون للخروج لملاقاة المجوس الذين احتشدوا في نهاوند. لقد كان محمد ملائما تماما لهذه المهمة، فهو كالسيف القاطع في الحق لا تأخذه لومة لائم ولا يستحي أن يؤدي واجبه، ولو كان التحقيق مع سعد بن أبي وقاص رفيقه في كل جهاد ومشاهده مع رسول الله ﷺ وسابقه إلى الإسلام بثلاث عشر عاما أو نحوها وفاتح العراق والجزيرة وقاهر الفرس وخال رسول الله ﷺ وصاحب المكانة بين صحابته وبعد ذلك أحد المرشحين للخلافة بعد عمر.

وأخذ محمد سعداً وقد وضع المجاملة كلها جانباً. وراح يطوف به على مساجد أهل الكوفة ليسألهم علنا وعلى رؤوس الأشهاد وأمام قائدهم سعد، فلم يكن ليفتح تحقيقاً سرياً، ولم يكن السؤال في السر من شأنهم حينذاك. ولم يقف محمد بسعد في مسجد من مساجد الكوفة يسأل ويستخبر عنه إلا قالوا خيراً، وكانت شهادتهم له. "لا نعلم إلا خيرا ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه" إلا ما كان ممن مالأ الجراح بن سنان وأصحابه الذين شكوا سعدا فإنهم سكتوا ولم يقولوا شيئاً ولكنهم تعمدوا ترك الثناء.

واستمر محمد يطوف بسعد على المساجد وهي يومئذ مجامع المسلمين ومنتدياتهم ودور عبادتهم حتى انتهى إلى مسجد بني عبس فوقف في الناس وقال: "أنشد بالله رجلاً يعلم حقا إلا قال" .

وأجابه رجل يدعى أسامة بن قتادة: "اللهم أن نشدتنا فإنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في الرعية ولا يغزو في السرية" .

أمام طوفان الشهادات لصالح سعد لم يشهد أحد ضده سوى هذه فغضب سعد ولم يرد على الرجل وإنما اتجه بقوله إلى الله: "اللهم إن كان قالها كاذباً ورئاءاً وسمعة، فأعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن. اللهم إن كانوا خرجوا أشرا وبطرا وكذبا فأجهد بلاءهم" .....

" إني لأول رجل أهرق دما من المشركين. ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه وما جمعهما لأحد من قبلي. ولقد رأيتني خمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أصلي وأن الصيد يلهيني؟!" .

هل كان اقتناع محمد بن مسلمة في جانب سعد أم في جانب أصحاب الشكوى؟! لسنا نشك في أن محمداً كان يصدق سعداً فما كان له أن يكذب كافة قبائل المسلمين في جميع مساجدها ويصدق أسامة بن قتادة! وما كان ليصدق أعراب بني أسد أن سعد بن أبي وقاص لا يحسن الصلاة. فمن يحسنها إذا لم يحسنها سعد؟ لقد صدَّقت الأحداث بعد ذلك سعداً. الذي كان مشهوراً باستجابة دعوته منذ دعا له رسول الله ﷺ يوم أحد: "اللهم سدد رميته وأجب دعوته" .

حتى لكانت دعوته لترتجى وتتقى. وليس أدل على براءة سعد وصدقه من اعتراف الذين اتهموه حين أصابتهم دعوته بعد ذلك. لقد عاش أسامة بن قتادة حتى عمي واجتمع عنده عشر بنات غير متزوجات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها بيده ويتعرض للجواري في سكك الكوفة فإذا خوطب في ذلك قال: "مفتون أصابته دعوة سعد بن أبي وقاص الرجل المبارك" !.

ولقد ثار الجراح بن سنان الأسدي على الحسن بن علي ليغتاله بساباط، فأخذته السيوف حتى قطعته، وشدخ قبيصه بالحجارة بينما قتل آخر يدعى أربد بالوجئ وبنعال السيوف.

بالرغم من وضوح القضية فقد خرج محمد بن مسلمة من الكوفة بسعد ابن أبي وقاص وبأولئك النفر حتى قدم بهم المدينة على عمر فأخبره الخبر. قال عمر "يا سعد. ويحك كيف تصلي؟" .

قال سعد "صلاة رسول الله ﷺ لا أخرم عنها، أطيل الأولبين، وأخذف الأخريين".

فقال: "هكذا الظن بك يا أبا إسحق. لولا الاحتياط لكان سبيلهم بينًا. من خليفتك يا سعد على الكوفة؟"

قال: عبد الله بن عبد الله بن عتبان: فأقره عمر على الكوفة، وأبقى سعداً عنده بالمدينة من وزرائه ومستشاريه.

قضية عمرو بن العاص:

كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذ ولاهم، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك، وربما أخذه منهم إنه المعروف اليوم بقانون "من أين لك هذا" الذي تأخذ به بعض الدول، بل إن هذا التعبير ذاته هو من قول عمر الذي كان يسائل به ولاته عن أموالهم التي زادت فترة ولايتهم عن ما كانت في حوزتهم قبلها.

كتب(110) عمر إلى عمرو بن العاص وهو واليه على مصر: "إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر".

فكتب إليه عمرو: "إن أرضنا أرض مُزْدَرَع ومُتَّجر، فنحن نصيب فضلا عن ما نحتاج إليه لنفقتنا".

فكتب إليه عمر: "إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى. وكتابك إليَّ كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظنا، وقد وجهت إليك محمد ابن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعه، وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفه من الغلظة عليك، فإنه برح الخفاء" .

(110) فتوح البلدان 257 عن المدائنى عن عبد الله بن المبارك.

وجاء محمد بن مسلمة إلى عمرو بن العاص بكتاب عمر فقاسمه ماله وضاق عمرو بذلك فقال لابن مسلمة: "إن زمانا عاملنا فيه ابن حنتمة (عمر) هذه المعاملة لزمان سوء. لقد كان العاص (أبو عمرو) يلبس الخز بكفاف الديباج" .

فأجابه محمد بن مسلمة: "مه، لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفيت معتقلا عنزا بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكؤها" .

قال عمرو: "أنشدك الله أن لا تخبر عمر بقولي، فإن المجالس بالأمانة". قال ابن مسلمة "لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حيٌّ"(111) .

وفي رواية ابن عبد الحكم بعض الإضافات، قال(112): "ثم بعث عمر ابن الخطاب محمد بن مسلمة إلى عمرو بن العاص وكتب إليه: أما بعد. فإنكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتم الحرام وأكلتم الحرام وأورثتم الحرام، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة الأنصاري ليقاسمك مالك. فأحضره مالك والسلام!"

فلما قدم محمد بن مسلمة مصر، أهدى له عمرو بن العاص هدية فردها عليه، فغضب عمرو وقال يا محمد لم رددت إليَّ هديتي وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ مقدمي من غزوة ذات السلاسل فقبل؟

---

(111)فتوح البلدان 258 عن المدائني عن عيسى بن يزيد.

(112) فتوح مصر وأخبارها 101 عن معاوية بن صالح عن محمد بن سماعة الرملي عن عبد الله بن عبد العزيز (شيخ ثقة).

فقال له محمد إن رسول الله ﷺ كان يقبل بالوحي ما شاء ويمتنع مما شاء ولو كانت هدية الأخ إلى أخيه قبلتها، ولكنها هدية أمام شر خلفها.

فقال عمرو قبّح الله يوماً صرتُ فيه لعمر بن الخطاب واليا، فلقد رأيت العاصي بن وائل (أب عمرو بن العاص) يلبس الديباج المزرر بالذهب وإن الخطاب بن نفيل (أب عمر) ليحمل الحطب على حمار بمكة!

فقال له محمد بن مسلمة: "أبوك وأبوه في النار، وعمر خير منك، ولولا اليوم الذي أصبحت تذم لأُلفيتَ معتقلا عنزا يسرك غزرها ويسؤك بكؤها" .

ثم أحضره ماله فقاسمه إياه ثم رجعً. أ.هـ

رجل لا تضره الفتنة

سايرنا في الصفحات السابقة محمد بن مسلمة في عصر رسول الله ﷺ وحتى عصر عمر بن الخطاب، ورأينا كيف كان عمر يثق به(113) ويستعمله لكشف الأمور المعضلة في البلاد مثل قضيتى سعد بن أبي وقاص ومقاسمة عمرو بن العاص ماله. كذلك ولاه عمر على صدقات(114) جهينة، وقد كانت جهينة من قبائل الأعراب المجاورين للمدينة. وانقضت تلك الأيام بكل حلاوتها حتى اغتيل عمر بن الخطاب، واستخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه،

([113])أسد الغابة 4761.

([114])أسد الغابة 4761، الإصابة 7808.

وفي عهده اندلعت الفتنة الكبرى في تاريخ المسلمين. ليست هذه الصفحات بحثاً في الفتنة ولا دراسة الفتنة من موضوعها، ولكن محمد بن مسلمة كان له في الفتنة مواقف مشهودة وذكر لا يجدر إغفاله، إن الخوض في الفتنة من أكره الوجوه وأبغض الأمور إلى النفس، ومع إنها من الأمور الجديرة بالدراسة والبحث فلن نقترب إلا بأقل قدر يسمح لنا بتبيان اتجاه محمد بن مسلمة خلالها.

الفتنة

وللفتنة أسباب متعددة(115) منها ما يرجع إلى مآخذ أخذها بعض المسلمين على الخليفة الثالث عثمان بن عفان، أهمها أنه كان يستعمل أقرباءه ويجزل لهم العطاء، وأنه كان شديداً عنيفاً على بعض الصحابة الأجلال حتى إنه أمر بضرب بعضهم، ومنها ما يرجع إلى طبيعة التحول الاجتماعي بعد احتواء الدولة للبلاد المفتوحة بما عليها من شعوب غير عربية، ومنها ما يرجع إلى نشاط ومؤامرات الجماعات السرية من المغلوبين على أمرهم أمام اكتساح الإسلام لعقائدهم وسلطانهم من اليهود ومن أبناء الديار المفتوحة.

([115]) الفتنة ووقعة الجمل – رواية سيف بن عمر. من المقدمة بقلم أحمد راتب عرموش ص 8-25

عبد الله بن سبأ(116)

ولقد كان عبد الله بن سبأ مثلا لذلك ومن أنشط هؤلاء المتآمرين. كان يهودياً من أهل صنعاء وكانت أمه سوداء. وبذلك اشتهر بابن السوداء. أسلم في عهد عثمان، ثم انتقل في بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام، فلم يقدر على استمالة أحد من أهل الشام، فأخرجوه من بينهم فأتى مصر.

والذي يبدو لنا أن ابن سبأ كان خبيثاً مكيراً قارئاً دارسا، فأخذ يلعب بعقول الناس بكلام منمق أحسن ترتيبه. قال فيما قال: "العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمد يرجع، وقد قال الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}[القصص: 85] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى"

وقبل سامعوه منه ذلك الفكر فاسترسل يتمادى: "إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصي محمد". ثم قال: "محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء. ومن أظلم ممن لم يجر وصية رسول الله ﷺ ووثب علي وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة" .

(116) الطبري 340/4 س ش س عن عطية عن يزيد الفقعسي.

ثم انتقل إلى ما بعدها: "إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر: وبث ابن سبأ دعاته وكاتب سراً من استفسد من الأمصار التي مر بها وكاتبوه. وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجعلوا يكتبون في عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك حتى أوسعوا الأرض إذاعة.

وآتى الناس إلى عثمان(117) فقالوا: "يا أمير المؤمنين. أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟"

قال: لا والله ما جاءني إلا السلامة.

فذكروا له ما أتاهم.

قال: فأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا على.

قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

---

(117)الطبري 341/4– السند السابق= عن محمد وطلحة.

ابن مسلمة من أهل الثقة

دعا عثمان محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة.

وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة.

وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر

وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام.

وأرسل سواهم إلى أمصار أخرى.

ليس فيما رجعنا إليه من مصادر تفاصيل ما فعل أولئك المرسلون في الأمصار التي توجهوا إليها. ولكن سبق أن مر بنا تفاصيل ما فعل محمد ابن مسلمة في الكوفة في بعثتين سابقتين، بعثه فيهما عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبي وقاص حين كان أمير الكوفة. ورأينا كيف كان صلباً جافاً فيما أوفد إليه. وليس لنا أن نتصوره في هذه الإرسالية التي أرسله فيها عثمان ابن عفان إلى الكوفة إلا متشدداً في التحقيق صلباً في الحق كما عهدناه.

لقد رجع المبعوثون جميعاً قبل عمار بن ياسر بأن الأمر أمر المسلمين إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقدمون عليهم. ثم جاء كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان على مصر أن عماراً قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه، منهم عبد الله بن سبأ، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر

خروج الثوار

وخرج الثوار من الأمصار إلى المدينة في شوال سنة خمس وثلاثين. كان أهل مصر، المقلل يقول ستمائة، والمكثر يقول ألف، وكذلك أهل الكوفة ومثلهم من أهل البصرة، سوى من تلاحق بهم من الناس. نزل أهل مصر بذي خشب، وكان يريدون علياً بن أبي طالب، ونزل أهل الكوفة بالأعوص، وكانوا يريدون الزبير بن العوام، ونزل أهل البصرة بذي مروة، وكانوا يشتهون طلحة.

واستعد أهل المدينة فاجتمعوا في عدة معسكرات للدفاع عن مدينتهم أمام هذا الزحف مجهول المقاصد. وأرسل كل قوم من الثوار إلى الذي يريدون من الثلاثة الذين ذكرنا، فجميعهم أجابهم:

"لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون(118) على لسان محمد ﷺ" .

يروي عاصم بن عمر بن محمود بن لبيد(119) قال: "لما نزلوا ذي خشب كلَّم عثمان علياً وأصحاب رسول الله ﷺ أن يردوهم عنه. فركب علي وركب معه نفر من المهاجرين فيهم سعيد بن زيد وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد،

---

(118) يقصدون قوله ﷺ.

(119) الطبري 359/4 عن محمد بن عمر عن محمد بن صالح عن عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد.

وخرج من الأنصار أبو أسيد الساعدي وأبو حميد الساعدي وزيد ابن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك، ومعهم من العرب نيار بن مكرم وغيرهم، ثلاثون رجلا، وكلمهم على ومحمد بن مسلمة- وهما اللذان قُدَّما- فسمعوا مقالتها ورجعوا" .

أظهر الثوار أنهم يرجعون، وجلوا عن ذي المروة وعن ذي خشب وعن الأعوص إلى ثلاث مراحل، فافترق أهل المدينة وانفضوا إلى بيوتهم.

قال محمد بن مسلمة: "ما برحنا من ذي خشب حتى رحلوا راجعين إلى مصر، وجعلوا يسلمون علي. فما أنسى قول عبد الرحمن بن عديس، أتوصينا يا أبا عبد الرحمن بحاجة؟!"

قلت: تتقى الله وحده لا شريك له، وترد من قبلك عن إمامه، فإنه قد وعدنا أن يرجع وينزع.

قال ابن عديس: أفعل إن شاء الله.

قال ابن مسلمة: فرجع القوم إلى المدينة!

رجع الثوار إلى المدينة وفاجأوا أهلها بالتكبير في نواحيها، ونزلوا في مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان، وقالوا من كف يده فهو آمن! وصلى عثمان بالناس أياماً، ولكن الثوار كانوا جماعات يمنعون أهل المدينة من الاجتماع.

وجاء يوم الجمعة فصلى عثمان بالناس ثم قام على المنبر فقال: "يا هؤلاء العدى الله الله، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ فامحوا الخطايا بالصواب، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ إلا بالحسن" .

فقام محمد بن مسلمة(120) فقال: "أنا أشهد بذلك" .

فأخذه حكيم بن جبلة العبدي (من لصوص عبد قيس، وكان من زعماء ثوار البصرة) فأقعده. فقام زيد بن ثابت فقال: "أبغني الكتاب" فأقعده رجل من الثوار وأغلظ له القول. ثم ثار الثوار بأجمعهم فأخرجوا الناس من المسجد بعنف وحصبوا عثمان على المنبر حتى سقط مغشياً عليه فاحتمل إلى داره.

وأمام مطالب الثوار فقد رفض عثمان ترك الخلافة. ورفض الهرب. ورفض القتال، فمنع الصحابة من الدفاع عنه حقناً لدماء المسلمين. ولكنه أرسل إلى الأمصار في طلب الجيوش الكبيرة، ولعله أراد أن يكون في وجودها رادع يضع الأمور في نصابها دون سفك دماء، ويحول بها دون تحكم فئة قليلة ثائرة.

---

(120) الطبري 353/4 س ش س عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان.

وصلى عثمان بالناس وبالثوار بعدها عشرين يوما في مسجد الرسول، وقيل ثلاثين يوماً ثم منعوه، وصلى بهم أميرهم الغافقي بن حرب العلي، وتفرق أهل المدينة وقد غلبوا على أمرهم فلزموا بيوتهم، واستمر حصار الثوار أربعين يوماً من تعرض لهم وضعوا فيه السلاح. فلما مضت من الأربعين ثماني عشرة يوماً علم الثوار بتجهيز جيوش الأمصار للسير إليهم، فحالوا بين الناس وبين عثمان ومنعوه كل شئ حتى الماء.

فلما تمت الأربعون اقتحم الثوار على عثمان داره، فقتلوه في الثامن عشر من ذي الحجة عام خمس وثلاثين، وانتهبوا ما في الدار ثم انتهبوا بيت المال، وعمت المدينة الفوضى، فبقيت خمسة(121) أيام بعد مقتل عثمان وليس لها أمير إلا الغافقي بن حرب العكي أمير الثوار. وأخيراً اجتمع الناس على علي ابن أبي طالب فبايعوه بالخلافة يوم الجمعة لخمس(122) بقين من ذي الحجة وقبلها عليٌّ إنقاذاً للموقف.

([121]) الطبري 432/4 عن محمد بن عبد الله بن ســـواء بن نويره وطلحة بن الأعلم وأبي حارثة وأبي عثمان 448/4.

([122])الطبري 498/2. عن محمد وطلحة.

أين ابن مسلمة

يهمنا من حديث الفتنة مكان محمد بن مسلمة منها، فأين كان بن مسلمة؟ لمحمد بن مسلمة رواية هامة عن تلك الأحداث توضح الدور الذي قام به، ومكانه مما كان يجري.

قال محمد بن مسلمة(123): "خرجت في نفر من قومي(124) إلى المصريين وكان رؤساؤهم أربعة، عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وقد كان هذا الاسم غلب حتى كان يقال حبيس بن الحمق، وابن النباع. فدخلت عليهم وهم في خباء لهم أربعتهم، ورأيت لهم الناس تبعا. فعظمت حق عثمان وما في رقابهم من البيعة وخوفتهم بالفتنة وأعلمتهم أن في قتله اختلافاً وأمراً عظيما. فلا تكونوا أول من فتحه، وأنه ينزع عن هذه الخصال التي نقمتم منها عليه وأنا ضامن لذلك.

قال القوم: وإن لم ينزع؟

قلت: فأمركم إليكم.

---

(123)الطبري 372/4 عن الواقـدي عن يحي بن عبد العزيز عن جعفر بن محمود عن محمد بن مسلمة.

(124) في رواية أن عثمان كلم محمد بن مسـلمة فخرج في خمسـين راكبا من الأنصار(الطبري 375/4 عن محمد بن عمر عن عبد الله بن الحارث بن القصـيل عن أبيه عن سـفيان بن أبي العوجاء)

فانصرف القوم وهم راضون، فرجعت إلى عثمان، فقلت: أخلني. فأخلاني.

فقلت: الله الله يا عثمان في نفسك، إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك، وأنت ترى خذلان أصحابك لك، لا بل هم يقوون عدوك عليك. فأعطاني الرضا وجزاني خيرا. ثم خرجت من عنده، فأقمت ما شاء الله أن أقيم. وقد تكلم عثمان برجوع المصريين، وذكر أنهم جاءوا لأمر فبلغهم غيره فانصرفوا. فأردت أن آتيه فأعنفه بهما ثم سكت فإذا قائل يقول: قد قدم المصريون وهم بالسويداء.

قلت: أحق ما تقول؟

قال: نعم.

فأرسل إليّ عثمان، وإذا الخبر قد جاءه، وقد نزل القوم من ساعتهم ذا خشب.

فقال: يا أبا عبد الرحمن، هؤلاء القوم قد رجعوا فما الرأي فيهم؟

قلت: والله ما أدري، إلا أني أظن أنهم لم يرجعوا لخير.

قال: فارجع إليهم فارددهم.

قلت: لا والله ما أنا بفاعل.

قال: ولم؟

قلت: لأني ضمنت لهم أموراً تنزع عنها، فلم تنزع عن حرف واحد منها.

فقال: الله المستعان.

وخرجت، وقدم القوم وحلوا بالأسواق وحصروا عثمان، وجاءني عبد الرحمن بن عديس ومعه سودان بن حمران وصاحباه.

فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألم تعلم أنك كلمتنا ورددتنا وزعمت أن صاحبنا نازع عما نكره.

فقلت: بلى.

فإذا هم يخرجون إليَّ صحيفة صغيرة، وإذا قصبة من رصاص فإذا هم يقولون: وجدنا جملا من إبل الصدقة عليه غلام عثمان، فأخذنا متاعه ففتشناه فوجدنا فيه هذا الكتاب فإذا فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد....

فإذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فأجلده مائة جلدة وأحلق رأسه ولحيته، وأطل حبسه حتى يأتيك أمري. وعمرو بن الحمق فأفعل به مثل ذلك. وسوداء بن حمران مثل ذلك. وعروة بن النباع الليثي مثل ذلك.

فقلت: وما يدريكم أن عثمان كتب بهذا؟

قالوا: فيفتات مروان على عثمان بهذا؟ فهذا شر! فيخرج نفسه من هذا الأمر

ثم قالوا: انطلق معنا إليه فقد كلمنا عليا، ووعدنا أن يكلمه إذا صلى الظهر، وجئنا سعد بن أبي وقاص فقال لا أدخل في أمركم، وجئنا سعيد زيد بن عمرو بن نفيل فقال مثل هذا.

فقال محمد: فأين وعدكم عليٌّ؟

قالوا: وعدنا إذا صلى الظهر أن يدخل عليه.

قال محمد (بن مسلمة): فصليت مع علي، ثم دخلت أنا وعلي عليه. فقلنا "إن هؤلاء المصريين بالباب فأذن لهم". ومروان عنده جالس. فقال: "مروان دعني جعلت فداك أكلمهم" فقال: عثمان" فض الله فاك، أخرج عني. وما كلامك في هذا الأمر!" فخرج مروان وأقبل علي عليه، وقد أنهى المصريون إليه مثل الذي أنهوا إلي. فجعل علي يخبره ما وجدوا في كتابهم. فجعل يقسم بالله ما كتب ولا علم ولا شوور فيه.

فقال محمد بن مسلمة: والله إنه لصادق، ولكن هذا عمل مروان.

فقال علي: فأدخلهم عليك فليسمعوا عذرك.

ثم أقبل عثمان على علي، فقال أن لي قرابة ورحما، والله لو كنت في هذه الحلقة لحللتها عنك. فأخرج إليهم فكلمهم فإنهم يسمعون منك.

قال علي: والله ما أنا بفاعل، ولكن أدخلهم حتى تعتذر إليهم.

قال: فادخلوا.

ويستمر محمد بن مسلمة في روايته فيقول:

فدخلوا يومئذ فما سلموا عليه بالخلافة، فعرفت أنه الشر بعينه.

قالوا: سلام عليكم.

فقلنا: وعليكم السلام.

فتكلم القوم، وقد قدموا في كلامهم ابن عديس، فذكر ما صنع ابن سعد بمصر، وذكر تحاملاً منه على المسلمين وأهل الذمة، وذكر استثارا منه في غنائم المسلمين، فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين إلي. ثم ذكروا أشياء مما أحدث (عثمان) بالمدينة وما خالف به صاحبيه. قال: فدخلنا من مصر، ونحن لا نريد إلا دمك أو تنزع. فردنا عليٌّ ومحمد بن مسلمة(125). وضمن لنا محمد النزوع عن كل ما تكلمنا فيه.

ثم أقبلوا على محمد بن مسلمة فقالوا: هل قلت ذاك لنا؟

قال محمد: فقلت نعم.

ثم رجعنا إلى بلادنا نستظهر بالله عز وجل عليك، ويكون حجة لنا بعد حجة، حتى إذا كنا بالبويب أخذنا غلامك فأخذنا كتابك وخاتمك إلى عبد الله ابن سعد تأمره فيه بجلد ظهورنا والمثل بنا في أشعارنا وطول الحبس لنا، وهذا كتابك.

فحمد الله عثمان وأثنى عليه ثم قال: والله ما كتبت ولا أمرت ولا شوورت ولا علمت.

([125]) في رواية أنهم قالوا... ثم قدمنا عليك فأعطيتنا التوبة والرجوع إلى الحق ولا منا فيك محمد بن مسلمة وضمن لنا ما حدث من أمر، فأحضرته فتبرأ منك وقال لا أدخل في أمره...
الطبري(4376).

فقلت (محمد بن مسلمة) وعليّ جميعا: قد صدق.

فاستراح إليها عثمان.

فقال المصريون: فمن كتبه؟

قال: لا أدري.

قال: أفيُجترأ عليك فيُبعث غلامك وجمل من صدقات المسلمين، وينقش على خاتمك ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم؟!

قال: نعم.

قالوا: فليس مثلك يلي، اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه .

قال: لا أنزع قميصا ألبسنيه الله عز وجل.

وكثرت الأصوات واللغط، فما كنت أظن أنهم يخرجون حتى يواثبوه.

وقام عليٌّ فخرج، فلما قام عليٌّ قمت. وقال للمصريين أخرجوا فخرجوا. ورجعت إلى منزلي(126) ورجع علي إلى منزله، فما برحوا محاصريه حتى قتلوه.

(انتهت رواية محمد بن مسلمة)

---

(126) في رواية أن عثمان أرسل إلى محمد بن مسلمة فكلمه أن يردهم فقال: والله لا أكذب الله في سنة مرتين(الطبري 77/4).

عليٌّ خليفة

بقى المسلمون أياما بدون خليفة قبل أن يقبل علي على الخلافة، فبايعه المسلمون وبايعه طلحة والزبير، وبايعه الأنصار إلا نفرا(127) يسيراً منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلّد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير، بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضاله ابن عبيد، وكعب بن عجرة. وقيل إن الذين لم يبايعوا عليا كانوا سبعة نفر(128)، هم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وصهيب وزيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن وقش، وأسامة بن زيد.

الصراع في البصرة

ثم دخل طلحة والزبير على عليٍّ فقالوا: "يا علي، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم" .

قال لهم: يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شئ مما تريدون؟

قالوا: لا.

---

(127) الطبري 430/4 عن عمر عن أبي الحسن (المدائني) عن شيخ من بني هاشم عن عبد الله بن الحسن.

(128) الطبري 431/4 عن الحارث بن ســـعد عن محمد بن عمر عن أبي بكر عن إســـماعيل بن محمد بن سعيد بن أبي وقاص عن سعد.

قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله.

واستأذن طلحة والزبير عليا فتركا المدينة إلى مكة لأداء العمرة، وهناك لاذ أنصار عثمان وامتنعوا. لم يكن ما يحدث في المدينة مقبولاً في مكة، فخرج منها طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة على رأس ألف، خرجوا يريدون البصرة ليمتنعوا هناك، ويطالبون بدم عثمان، وقتال من قتله، فكان ذلك اليوم أكثر يوم بكاء للإسلام وبكاء عليه حتى سمي يوم النحيب(129).

وعزل علي بن أبي طالب عمال عثمان على الأمصار، وكان معاوية ابن أبي سفيان عامل عثمان على الشام وهو أبرز وأقوى المطالبين بالقصاص من قتلة عثمان، وكان أكثرهم سيطرة على مصره، وقد أعد عليٌّ جيشا للتوجه به إليه ولكنه حين علم بالتجمع الذي سار من مكة إلى البصرة، تحول إلى البصرة يريد أن يأخذهم بالطريق، قبل أن يصلوا فما أن بلغ الربذة حتى استبان له أنهم فاتوه.

---

(129) الفتنة ووقعة الجمل 117.

وبلغ ركب طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة فافترق أهلها فريقين، فريق معهم وفريق عليهم، وقد أعلن طلحة والزبير أن بيعتهما لعلي كانت كرها، وكان عثمان بن حنيف عامل عليٍّ على البصرة هو الذي يتصدى لطلحة والزبير، واقتتل الفريقان قبل أن يصل علي. ثم إنهم اتفقوا وكتبوا بينهم كتابا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة لينظر إن كانت بيعة طلحة والزبير عليا طوعا أو كرها فإن كانا أكرها على البيعة خرج عثمان ابن حنيف من البصرة وأخلاها لهم، وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير.

وخرج رسولهم الرجل الفاضل كعب بن سور(130) الأزدي قاضي البصرة فقدم المدينة يوم الجمعة واجتمع الناس لقدومه فقام فيهم فقال(131): "يا أهل المدينة، إني رسول أهل البصرة إليكم، أكره هؤلاء القوم هذين الرجلين (يعني طلحة والزبير) على بيعة علي، أم أتيا طائعين؟" فسكت الناس ولم يجبه أحد. ثم قام أسامة بن زيد فقال: "اللهم أنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان" .

([130]) حكى الشـــعبي أن كعب بن ســـور كان جالسا عند عمر بن الخطاب فجاءت امرأة فقالت ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي، أنه ليبيت ليله قائما ويظل نهاره صائما في اليوم الحار ما يفطر فاستغفر لها عمر وأثنى عليها وقال: مثلك أثنى بالخير، فاستحيت المرأة وقامت راجعة. فقال كعب بن ســـور: يا أمير المؤمنين هلا أعديت المرأة على زوجها إذ جاءتك تســـتعديك؟ فقال: أكذلك أرادت؟! قـــال نعم. قال عمر ردوا عليّ المرأة. فردت. فقال لها لا بأس بالحق أن تقوليه. إن هذا يزعم أنك جئت تشـــتكين أنه يجتنب فراشـــك، قالت أجل، إني امرأة شـــابة وإني ابتغي ما يبتغي النســـاء. فأرســـل إلى زوجها فجاء، فقال لكعب أقض بينهما. فقال أمير المؤمنين أحق بأن يقضي بينهما. فقال عزمت عليك لتقضين بينهما فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهم. قال فإني أرى أن لها يوماً من أربعة، إن كان زوجها له أربع نســـوة فإذا لم يكن له غيرها فإني اقضـــي له بثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن ولها يوم وليلة. فقال عمر والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر، اذهب فأنت قاض على البصرة ولم يزل كعب قاضياً بالبصرة حتى كان يوم الجمل فلما اجتمع الناس بالخريبة واصـــطفوا للقتال خرج كعب وبيده المصـــحف قد نشـــره وجال بين الصفين يناشد الناس الله في دمائهم، وهو على ذلك أتاه سهم غرب لا يدري من راميه فقتله. وكان كعب من أبطال المسلمين في الفتوح حتى روي عنه أنه قتل في معركة تســـتر مائة رجل من المجوس مبارزة ســـوى من اشترك في قتله.

([131]) الطبري 467/4 عن سيف عن محمد وطلحه.

فأمر به تمام بن العباس فوثب عليه سهل بن حنيف وبعض الناس ليسكتوه. وثار صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد ومحمد بن مسلمة في عدد من الصحابة حين خافوا أن يقتل أسامة، فقاموا إليه ليدركوه، وصاح صهيب يقول: "اللهم نعم، فانفرجوا عن الرجل" .

فانفرجوا عنه، فأخذ بيده حتى أخرجه من المسجد وذهب به إلى بيته وهو يقول له: "أما وسعك ما وسعنا من السكوت" ؟!

ورجع كعب بن سور إلى البصرة بما رأى، فعاد القتال بالبصرة، وكانت الغلبه لطلحة والزبير على عثمان بن حنيف لخمس ليال بقين(132) من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

وبلغ علي البصرة والتقى الفريقان وهما أقرب إلى التفاهم منهما إلى التنافر. ولكن ما بينهما كان مشحونا بالتفجر. لم يكن الخلاف بينهما ليؤدي إلى التصادم لولا أن الثائرين على عثمان كانوا يعلمون أن إقرار التفاهم سوف يؤدي حتماً إلى إنزال القصاص بالقتلة- وهم منهم وبينهم- فوجد عبد الله بن سبأ وأمثاله مجالاً لنشاطهم المخرب الهدام، وكلما كاد الفريقان أن يصلا إلى التفاهم وتصالح، عمد هؤلاء إلى إعادة الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه إلى حد إنشاب القتال.

([132]) الطبري 474/4 عن سيف عن محمد وطلحه.

ووقعت المعركة. معركة الجمل.

وقتل من الصحابة والتابعين أكثر من عشرة آلاف على قول! وأكثر من خمسة عشر ألفا على قول آخر!! وقتل طلحة والزبير. وانتصر فريق علي ولكن عليا نفسه كان أشد الناس حزناً حتى قال: "والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة". وكذلك قالت عائشة.

فمنذ ذلك اليوم بدأت الحرب الأهلية بين المسلمين، وبمرور الزمن تطور الخلاف السياسي إلى خلاف مذهبي نشأت عنه بين المسلمين فرق وأحزاب وكانوا شيعاً. منهم من كان مع عليٍّ الإمام الشرعي، وهؤلاء سرعان ما انتشر الخلاف بينهم من كان مع طلحة والزبير وعائشة، ومنهم من لزم جانب الحياد.

وأخيراً

تفاقمت الفتنة. وتصاعدت المحنة. وتزايدت أحداثها وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ إلى سوء أشد. ونحن نبحث عن محمد بن مسلمة حينذاك ونتعقب خطاه وسط تلك الأحداث، يكفينا منها أن نتبع أخباره ولم يعد يهمنا كثيراً أن نخوض في وقائعها. فقد التزم فريق من كبار الصحابة وفضلائهم جانب الحياد واختاروا لأنفسهم اعتزال ما يجري، فلزموا بيوتهم أو اعتكفوا في معتزلات تبلغهم فيها الأخبار، لا يشاركون بفعل أو قول.

كان من أبرز هؤلاء خال رسول الله ﷺ وأحد المبشرين بالجنة وفاتح العراق وأحد المرشحين للخلافة بعد عمر سعد بن أبي وقاص. وعبد الله بن عمر وكاتب القرآن الكريم زيد بن ثابت، وصاحبنا محمد بن مسلمة بن خالد، فقد ذكرت المصادر(133) أن محمد بن مسلمة اعتزل الفتنة واتخذ سيفاً من خشب وجعله في جفن وقال: بذلك أمرني رسول الله ﷺ، ولم يشهد معركة الجمل، ولا معركة صفين ولا رفع سلاحا في الفتنة، وأقام بالربذة بعد قتل عثمان ابن عفان ﷺ.

وعن طاوس قال: قال محمد بن مسلمة: أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً وقال: "قاتل به المشركين. فإذا اختلف المسلمون بينهم فاكسره على صخرة، ثم كن حلسا من أحلاس بيتك".

والحلس هو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، أو هو ما يبسط في البيت على الأرض تحت حر الثياب والمتاع والمعنى هنا واضح.

وفي رواية مشابهة(134) عن محمد بن مسلمة قال أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً فقال: "قاتل به المشركين ما قاتلوا، فإذا رأيت أمتي بضرب بعضهم بعضا فائت به أحداً (جبل أحد) فاضرب به حتى ينكسر ثم أجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية" ففعل.

---

(133) الإصابة 7808، أسد الغابة 4761، المعارف 269.

(134) الإصابة 7808 وسنده ثقات.

وقال حذيفة بن اليمان: إني لأعلم رجلا لا تضره الفتنة، محمد بن مسلمة. قال الرواي، فانطلقنا فأتينا الربذة فإذا فسطاط مضروب وإذا فيه محمد ابن مسلمة، فسألناه فقال: لا نشتمل على شئ من أمصارهم حتى ينجلي الأمر عما انجلى.

(والربذة على ثلاثة أميال من المدينة = حوالي 5.5 كيلوا مترا).

هل كان صوابا موقف بن مسلمة من الفتنة؟

إن الإجابة على هذا السؤال تجرنا إلى البحث في مواقف كل أطراف الفتنة. هل كان عثمان بن عفان مخطئاً؟ هل كان علي بن أبي طالب على حق؟ هل كان طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة مصيبين أم مخطئين؟ هل كان سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وكل من اعتزل الفتنة مثلهم، قد اختاروا الموقف الأمثل؟. هل صحيح ما بلغنا عن الفتنة من روايات؟ وما الصحيح منها وما الموضوع؟ هل...؟ هل؟!!

لقد تجنبنا من بادئ الأمر الخوض في الفتنة. ولا نظنها استحقت هذا الاسم، بل هذه الصفة. إلا بالتباس الحق فيها بالباطل، فصار صعبا أو شاقاً إن لم يكن مستحيلا أن ينجلي الصواب فيها من الخطأ.

لذلك فإنه يكفينا أن نلقى الضوء على البواعث التي ساقت محمد ابن مسلمة إلى اختيار موقفه. فلا شك أن بن مسلمة استجاب لما أملاه عليه فهمه لدينه، وأنه قد انبعث عن ما سمعه أو بلغه من رسول الله ﷺ من أحاديث عن الفتنة، وهي كثيرة نسوق منها بعضا من أصحها كما أخرجها البخاري.

فعن أبي هريرة قال: قال(135) رسول الله ﷺ "ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي. والماشي فيها خير من الساعي، ومن تشرف لها تستشرفه. فمن وجد فيها ملجأ أو معاذا فليعذ به" .

وعن ابن عباس(136) عن النبي ﷺ قال: "من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية".

وعن أسامة بن زيد(137) رضي الله عنهما قال أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة، فقال: "هل ترون ما أرى؟ قالوا لا. قال فإني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر".

وعن عبد الله(138) بن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول: "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض".

وعن أبي هريرة(139) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل على قبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه".

---

(135) البخاري 24/158-6654، 6655.

(136) البخاري 24/147-6630.

(137) البخاري 24/150-6635.

(138)البخاري 24/156-6650.

(139)البخاري 24/181-6683.

وعن أبي سعيد الخدري(140) ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن".

ويبدو أن محمد بن مسلمة لم يكن وحده الفار بدينه إلى الربذة. فعن يزيد بن أبي عبيد(141) قال: لما قتل عثمان بن عفان، خرج سلمة بن الأكوع إلى الربذة، وتزوج هناك امرأة وولدت له أولاداً، فلم يزل بها حتى قبل أن يموت بليال فنزل المدينة. وكانت وفاة سلمة سنة أربع وسبعين، وقيل أربع وستين.

لقد كان النقد الذي وجه إلى أصحاب الاعتزال أنهم قعدوا عن نصرة الحق، ولكن أي حق؟ إن الأمور ملتبسة، ولو ظهر الحق كل الحق جلياً لا شك فيه في جانب لكان هؤلاء الصحابة الأجلاء قد انحازوا إليه بدون تردد، وعلى كل حال فإن انحياز الذين اعتزلوا الفتنة إلى أي جانب من جوانبها، لم يكن ليؤدي إلا إلى مزيد من الوقود يلقى في ذلك الأتون. ومن هنا نحس بالتقدير لنضوج فكر هذا الجناح من صحابة رسول الله ﷺ .

ولقد كثر اختلاف الناس حول تصويب أو تخطئة هذا أو ذاك من أطراف الفتنة، ولكن بلا ريب إن الذين اعتزلوا الفتنة قد تعرضوا لأقل نقد كما ونوعاً نسأل الله الصفح والرحمة والرضا عنهم جميعاً.

---

(140)البخاري 24/165-6662.

(141)البخاري 24/165-6661، أسد الغابة 2154.

لقد اقتربنا بهذه الدراسة عن محمد بن مسلمة من نهايتها ومر بنا في الصفحات السابقة الكثير عن الرجل ولا يسعنا بعد أن عرفنا عنه ما عرفنا أن نظن به القعود عن نصرة الحق! إن الذي يبادر إلى تغيير دينه والدخول في الإسلام قبل كبير قبيلته والغالبية العظمى من قومه لأنه عرف الحق في دين الله لا يظن به القعود عن نصرة الحق. وللرجل من المواقف كثير غير ذلك. قعوده يوم بعاث، وإخراجه بني قينقاع من المدينة، ومبادرته إلى التطوع لاغتيال كعب بن الأشرف، وقيامه بتنفيذ ذلك الاغتيال، وثباته مع رسول الله ﷺ في هزيمة المسلمين يوم أحد، وإخراجه بني النضير من المدينة وقيادته حرس حصار بني قريظة، وقيادته حرس المسلمين في الحديبية، وبطولته في أيام خيبر، ومسئوليته عن الخيل في عمرة القضاء، ثم إحراقه باب دار سعد بن أبي وقاص في الكوفة، واصطحابه إياه إلى المدينة، وتسلقه حصن بابليون مع الزبير بن العوام ومقاسمته عمرو بن العاص ماله بأمر عمر، بل أن مواقفه الأولى في ذات الفتنة. سفارته إلى أهل الكوفة، ووساطته بين عثمان بن عفان وبين الثوار، ثم رفضه الاستمرار في هذه الوساطة للأسباب التي ذكرها لعثمان، ودفاعه عن أسامة بن زيد حين خاف عليه أن يقتله الثوار. تلك كلها مواقف مشهودة لمحمد بن مسلمة لا تصدر عن رجل يخاف الجهر بكلمة الحق أو يقعد عن نصرته. فإذا قعد محمد ابن مسلمة عن الانحياز إلى أي جانب في تلك الفتنة العارمة فلا نراه إلا آخذاً بحديث رسول الله ﷺ "ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم......"الخ.

وداعا يا ابن مسلمة

بعد ذلك نقلب صفحات المصادر بحثا عن أخبار محمد بن مسلمة فلا نجد إلا صمتا. وهذا طبيعي مادام الرجل قد اعتزل كل جانب، وقعد عن كل نشاط. حتى إذا جاء العام الثالث والأربعون، كتب الطبري(142) في تاريخه: "ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين. وفي خبر جد مقتضب تحت هذا العنوان قال: "وفيها مات محمد بن مسلمة في صفر بالمدينة، وصلى عليه مروان ابن الحكم". وانتهى الخبر بدون أية تفاصيل!

وفي خبر آخر ذكره ابن حجر(143) قال: قيل قتله أهل الشام، دخل عليه رجل من أهل الشام، من أهل الأردن وهو في داره فقتله.

عاش محمد بن مسلمة بالمدينة ومات بها. كان يغادرها في الغزوات والسرايا وفي بعض المهام الخاصة بلغت العراق ومصر، ثم يعود إليها، ولكنه لم يستوطن غير المدينة.

ولم نجد خلافا بين الرواة على أنه توفي وهو ابن سبع وسبعين سنة، ولكنهم اختلفوا في تاريخ وفاته على ثلاثة أقوال، فقال بعضهم إنه مات بالمدينة في صفر سنة ثلاث وأربعين(144). وقال الواقدي سنة ست وأربعين، وقيل سنة سبع وأربعين. وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ أمير على المدينة.

---

(142) الطبري 181/5.

(143) الأصابة 7808 عن يعقوب بن سفيان في تاريخه، وقاله أيضاً ابن أبي داود.

(144) رواه الطبري والمدائني. وروي ابن قتيبة أنه مات في صفر سنة ست وأربعين أو ثلاث وأربعين.(المعارف 269).

خاتمة

لقد كان لمحمد بن مسلمة عشرة من الأبناء الذكور(145) وست من الإناث. ولكننا لم نقف إلا على أسماء ثمانية فقط من أولاده الذكور هم عبد الله وعبد الرحمن وجعفر وعمرو وسعد، وهؤلاء ورد عنهم أنهم صحبوا رسول الله ﷺ وقد شهد جعفر وعبد الله وعمرو وسعد فتح مكة والمشاهد بعده. وغير هؤلاء من أبنائه محمود وعمير وسعير. أما الإناث فلم نعثر على ذكر لهن كذلك لم نقف على أي ذكر لزوجة أو زوجات، ونظن من كثرة أولاده أنه كان له أكثر من زوجه وربما أكثر من زوجتين.

وذكر ابن حجر العسقلاني(146) أنه روي الحديث عن محمد بن مسلمة ابنه محمود وذؤيب والمسور بن مخرمة وسهل بن أبي حثمة وأبو بردة بن أبي موسى وعروة والأعرج وقبيصة بن حصن وآخرون.

وقد روى بعض(147) ولد ابن مسلمة رواية، قالوا: "بقيت بقية من أهل خيبر تحصنوا وسألوا رسول الله ﷺ أن يحقن دمائهم ويسيرهم، فسمع بذلك أهل فدك فنزلوا على مثل ذلك، وكانت فدك لرسول الله ﷺ خاصة لأنه لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب" .

([145]) المعارف 269، الإصابة 7808

([146]) فتوح البلدان 33 عن الحسين بن الأسود عن يحيى بن أدم عن ابن أبي زائدة عن محمد بن اسحق عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر وبعض ولد محمد بن مسلمة.

"([147]) فتوح البلدان 33 عن الحسين بن الأسود عن حيي بن أدم عن ابن أبي زائدة عن محمد بن اسحق عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر وبعض ولد محمد بن مسلمة.

وحين يتحدث أولاد محمد بن مسلمة عن خيبر فنحسبه حديث عليمين بها، فإن لهؤلاء الأولاد عمٍّ قبره هناك في خيبر كان من شهداء فتحها، وكان أبوهم من أبطال ذلك الفتح، ولما أخرج عمر اليهود من خيبر، ركب في المهاجرين والأنصار وخرج معه جبار بن صخر وكان محاسب أهل المدينة ويزيد بن ثابت، فقسما خيبر بين أهلها، كذلك قسم عمر وادي القرى فكان لمحمد بن مسلمة نصيب فيه(148) .

ولقد عرفنا أنه كان لمحمد بن مسلمة أخوه محمود، ولا نجد في السيرة ولا في حياة الأخوين ذكر لأخوة آخرين. ولكن ابن الأثير أورد ترجمة لمحمد بن محمود بن عبد الله بن مسلمة وقال عنه: "ابن أخي محمد بن مسلمة حدث عن أبيه، ذكره المروزي في الصحابة. وقال قد سمع من رسول الله ﷺ وساق عنه حديثاً. قال: قال محمد بن محمود رأى رسول الله ﷺ أعمى يتوضأ فلما غسل يديه ووجهه جعل النبي يقول أغسل باطن قدميك. فجعل يغسل باطن قدميه" .

ومحمود أخ محمد ليس ابن عبد الله كما ذكر ابن الأثير(149) ولكنه ابن مسلمة، أما إذا كان ما ذكره ابن الأثير صحيحا في هذا المكان فإنه يعني أنه كان لمحمد ومحمود أخ ثالث هو عبد الله، وفي هذه الحالة لا يكون محمد بن محمود بن عبد الله ابن أخي محمد بن مسلمة تماما، وإنما يكون حفيد أخيه. وربما استبعدنا أن يكون حفيد أخيه صحابيا أدرك النبي ﷺ وسمع منه وروي عنه الحديث.

---

(148) السيرة النبوية لابن هشام 358/3.

(149) أسد الغابة 4759.

وبعد

فهذه حياة صحابي جليل من الرعيل الأول العاملين لتوطيد أركان الإسلام في الأرض.

رأينا فيه نمطاً معينا من النموذجية والمثالية، كان له بها مكانة خاصة في عصر النبوة وفي عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم.

لقد كان محمد بن مسلمة مسلماً مؤمناً وأنصارياً باذلا، ومحارباً مقتدراً في مبارزاته وفي حمل السلاح، ثم كان رجل المهام الخاصة والمهمات الصعبة وأهلاً للثقة في الأزمات.

فهو الذي يغتال كعب بن الأشرف سيد يهود المدينة.

وهو الذي يتولى إخراج يهود بني قينقاع من المدينة.

وهو الذي يتولى إخراج حلفاء يهود بني النضير من المدينة.

وهو الذي يقود حصار حلفاء يهود بني قريظة.

وهو الذي يستنزلهم من حصونهم فيوثقهم تمهيداً لإعدامهم.

وهو واحد من خمسة عشر ثبتوا مع النبي ﷺ يوم أحد.

وهو قائد حرس المسلمين في الحديبية.

وهو قاتل مرحب كبير يهود خيبر في غزوة خيبر.

وهو قائد بعض السرايا التي بعث بها رسول الله ﷺ إلى الكفار.

وهو "النيابة الإدارية" يوجهه عمر إلى عماله على الأمصار- وهم من هم مكانة وعلوا- فكأنما هو قضاء الله وقدره. يحرق أبوابهم ويعزلهم عن ولاياتهم ويقاسمهم أموالهم.

صلابة في الحق لا تلين ولا تميل ولا تجامل. والحق عنده ما يراه حقا. حتى إذا كانت الفتنة، كان هو هو نفسه. وجد الحق في رد الثوار عن عثمان فذهب يردهم على ضمانات معينة، ثم رأى الضمانات لا تلتزم، وكما كان شجاعاً في الأولى، كان شجاعاً في الثانية، ورفض في وضوح الاستمرار. يقول له عثمان ارجع إليهم فارددهم، فيقول لا والله ما أنا بفاعل. فيسأل عثمان عن السبب فيجيب لأني ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها.

وقُتل عثمان وتاه الحق. ولم يبايع محمد بن مسلمة علياً- وكان الذين يبايعوه أقل من القلة- ولا ناصر أحداً في قتال يضرب فيه المسلمون وجوه بعض، بل كسر سيفه الذي طالما جاهد به المشركين واليهود، واعتزل الجميع، وأقام في الربذة خارج المدينة، وآثر أن يقضي ما تبقى من عمره على هامش التاريخ على أن يكون له ذكر في نشاط لم يقتنع به قلبه.

وهنا موطن القدوة في حياة محمد بن مسلمة. ألا يدفع الخوف أو النفاق أو المجاملة أو التوريط المسلم إلى عمل لا يرضى عنه قلبه وضميره. إن استطاع أن ينصر الحق الصراح الذي لا لبس فيه ولا شبهة، ففرض عليه أن يفعل. وإلا فمن الأمانة والشرف ومن الإسلام والإيمان أن يقول لا أفعل فإني لا أرى الحق. أو أراه ولكني عاجز عن النصرة.

لا نستطيع أن نقول عن ابن مسلمة أنه كان عثمانياً ولا كان ضد عثمان.

ولا نقول أنه كان علوياً. ولا كان ضد علي.

ولا كان طلحويا أو زبيريا. ولا كان ضد طلحة والزبير.

ولكنه وقافا عندما يراه، متوقفا عما لا يراه.

رحم الله محمد بن مسلمة ﵁ وصلى الله على نبيه ﷺ حيث قال: "اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار" .

مراجع الكتاب

تاريخ الأمم والملوك	الطبري
فتوح البلدان	البلاذري
فتوح مصر وأخبارها	ابن عبد الحكم
السيرة النبوية	ابن هشام
إمتاع الأسماع	المقريزي
الجامع لأحكام القرآن	القرطبي
تفسير القرآن العظيم	ابن كثير
أسد الغابة	ابن الأثير
الإصابة	ابن حجر
الاستيعاب	يوسف بن عبد البر
جمهرة أنساب العرب	ابن حزم
المعارف	ابن قتيبة
شرح صحيح البخاري	الكرماني
صحيح مسلم	مسلم
الطرق الحكمية في السياسة الشرعية	ابن القيم
الطريق إلى المدائن	أحمد عادل كمال
فتوح الشرق بعد القادسية	أحمد عادل كمال
أيام العرب في الجاهلية	جاد المولى

فهرس

مقدمة المركز 1
مقدمة المؤلف.. 3
الرسالة والأنصار أول إسلام في يثرب: 4
الأوس والخزرج 5
يوم بعاث() 6
ستة من الخزرج 9
أنصار ومهاجرون 11
فضل الأنصار... 12
صاحبنا محمد المولد والنسب 15
الاسم الكريم 17
إسلام ابن مسلمة.. 17
أول العهد بالمدينة 20
السرايا والغزوات الأولى: 20
مهاجرون فقط 21
غزوة بدر الكبرى 22
بنو قينقاع 25
غزوة ذي أمر 28
اغتيال كعب بن الأشرف حقد وتشبيب.. 29
فدائي متطوع 33
عملية صعبة: 35

جماعة الاغتيال..36
إعداد العملية..38
التنفيذ 39
اغتيال أبي رافع 47
الاغتيال السياسي 49
غزوات أخرى وسرايا ابن مسلمة في غزوة أحد 51
غزوة بني النضير..55
ثلاث غزوات أخرى..59
غزوة الخندق..59
ابن مسلمة في بني قريظة 64
سرية القرطاء() 67
وسرية إلى ذي القصة..70
في عمرة الحديبية: 71
هدية من المقوقس..73
غزوة خيبر 75
عمرة القضاء 81
فتح مكة..82
هوازن والطائف 84
نصيب الأنصار..85
تبوك..88
في حروب الردة..90
خالد يغزو العراق 91
في عهد عمر في فتح مصر 97
قضية سعد الأولى:..100

قضية() سعد الثانية 103
قضية عمرو بن العاص: 109
رجل لا تضره الفتنة... 111
الفتنة 112
عبد الله بن سبأ()... 113
ابن مسلمة من أهل الثقة 115
خروج الثوار.. 116
أين ابن مسلمة 120
عليٌّ خليفة... 126
الصراع في البصرة.. 126
وأخيراً.. 131
وداعا يا ابن مسلمة 137
خاتمة 138
مراجع الكتاب 143
فهرس... 144